شرح

الأُرجُوزَةِ
فِي آداب التَّعلُّمِ والتَّفقُّهِ

منسوبة إلى اللؤلؤي وقيل المأمون

أ.د عارف بن مزيد السحيمي

متن منظومة الأرجوزة في آداب التعلُّم والتَّفقُّه

منسوبة إلى اللؤلؤيِّ وقيل إلى المأمون

قال الناظم رحمه الله:

واعلم بأنَّ العلمَ بالتعلُّمِ ... والحفظِ والإتقانِ والتفهُّمِ
والعِلْمُ قد يُرْزَقُهُ الصغيرُ ... فِي سِنِّهِ وَيُحْرَمُ الْكَبِيرُ
وَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ ... لَيْسَ بِرِجْلَيْهِ وَلَا يَدَيْهِ
لِسَانُهُ وَقَلْبُهُ الْمُرَكَّبُ ... فِي صَدْرِهِ وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَبُ
وَالْعِلْمُ بِالْفَهْمِ وَبِالْمُذَاكَرَةِ ... وَالدَّرْسِ وَالفِكْرَةِ وَالْمُنَاظَرَةِ
فَرُبَّ إِنْسَانٍ يَنَالُ الْحِفْظَا ... وَيُورِدُ النَّصَّ وَيَحْكِي اللَّفْظَا
وَمَا لَهُ فِي غَيْرِهِ نَصِيبُ ... مِمَّا حَوَاهُ الْعَالِمُ الْأَدِيبُ
وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَدِيدِ الْحُبِّ ... لِلْعِلْمِ وَالذِّكْرِ بَلِيدُ الْقَلْبِ
مُعَجَّزٌ فِي الْحِفْظِ وَالرِّوَايَةِ ... لَيْسَتْ لَهُ عَمَّنْ رَوَى حِكَايَةٌ
وَآخَرٌ يُعْطَى بِلَا اجْتِهَادِ ... حِفْظًا لِمَا قَدْ جَاءَ فِي الْإِسْنَادِ
يَهُذُّهُ بِالْقَلْبِ لَا بِنَاظِرِهِ ... لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى قَمَاطِرِهِ
فَالْتَمِسِ الْعِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ ... وَالْعِلْمُ لَا يَحْسُنُ إِلَّا بِالْأَدَبِ
وَالْأَدَبُ النَّافِعُ حُسْنُ السَّمْتِ ... وَفِي كَثِيرِ الْقَوْلِ بَعْضُ الْمَقْتِ
فَكُنْ لِحُسْنِ السَّمْتِ مَا حَيِيتَا ... مُقَارِفًا تُحْمَدُ مَا بَقِيتَا
وَإِنْ بَدَتْ بَيْنَ الأنامِ مَسْأَلَةٌ ... مَعْرُوفَةٌ فِي العِلْمِ أَوْ مُفْتَعَلَةٌ
فَلَا تَكُنْ إِلَى الْجَوَابِ سَابِقًا ... حَتَّى تَرَى غَيْرَكَ فِيهَا نَاطِقَا
فَكَمْ رَأَيْتُ مِنَ عَجُولٍ سَابِقِ ... مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ بِالْخَطَاءِ نَاطِقِ
أَزْرَى بِهِ ذَلِكَ فِي الْمَجَالِسِ ... عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ وَالتَّنَافُسِ
وَقُلْ إِذَا أَعْيَاكَ ذَاكَ الْأَمْرُ ... مَالِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خُبْرُ
فَذَاكَ شَطْرُ الْعِلْمِ عِنْدَ الْعُلَمَا ... كَذَاكَ مَا زَالَتْ تَقُولُ الْحُكَمَا

وَالصَّمْتُ فَاعْلَمْ بِكَ حَقًّا أَزْيَنُ   إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْـدَكَ عِلْمٌ مُتْقَنُ

إِيَّاكَ وَالْعُجْبَ بِفَضْـــلِ رَأْيِكَا   وَاحْذَرْ جَوَابَ الْقَوْلِ مِنْ خَطَائِكَا

كَمْ مِنْ جَوَابٍ أَعْقَبَ النَّدَامَةَ   فَاغْتَنِمِ الصَّـمْتَ مَعَ السَّـلَامَةِ

الْعِلْمُ بَحْرٌ مُنْتَهَـاهُ يَبْـعُـدُ   لَيْسَ لَـهُ حَـدٌّ إِلَيْـهِ يُقْصَــــدُ

وَلَيْسَ كُـلُّ العِلْمِ قَـدْ حَوَيْتَـهُ   أَجَلْ وَلَا الْعُشْرَ وَلَوْ أَحْصَيْتَهُ

وَمَـا بَقِي عَلَيْـكَ مِنْـهُ أَكْثَرُ   مِمَّـا عَلِمْـتَ وَالْجَوَادُ يَعْثُرُ

فَكُنْ لِمَا سَمِعْتَهُ مُسْـــتَفْهِمَا   إِنْ أَنْتَ لَا تَفْهَمُ مِنْـهُ الْكَلِمَا

الْقَوْلُ قَوْلَانِ فَقَوْلٌ تَعْقِلُـهُ   وَآخَرُ تَسْـــمَعُـهُ فَتَجْهَلُـهُ

وكُـلُّ قَـولٍ فَلَـه جَـوابُ   يجمعه البَاطلُ والصَّـوابُ

وَلِلْــكَـلَامِ أَوَّلٌ وَآخِـرُ   فَافْهَمْهُمَا وَالذِّهْنُ مِنْكَ حَاضِرُ

لَا تَـدْفَـعِ الْقَوْلَ وَلَا تَـرُدَّهُ   حَتَّى يُؤَدِّيَـكَ إِلَى مَـا بَعْـدَهُ

فَرُبَّمَا أَعْيَى ذَوِي الْفَضَــائِلِ   جَوَابُ مَا يَلْقَى مِنَ الْمَسَــائِلِ

فَيُمْسِكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِهِ   عِنْدَ اعْتِرَاضِ الشَّكِّ فِي صَوَابِهِ

وَلَوْ يَكُونُ الْقَوْلُ فِي الْقِيَـاسِ   مِنْ فِضَّـةٍ بَيْضَـاءَ عِنْدَ النَّاسِ

إِذًا لَكَانَ الصَّمْتُ مِنَ خيْرِ الذَّهَبِ   فَافْهَمْ هَدَاكَ اللَّهُ آدَابَ الطَّلَبِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمةُ الشَّرح

الحمدُ للهِ الذي علَّمَ بالقلمِ، علَّمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، وَالْصَّلاَةُ وَالْسَّلاَمُ عَلَى نبينا محمد صلى الله عليه، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاَهُ، وَمَنِ اسْتَنَّ بِسُنَّتِهِ وَاهْتَدَى بِهُدَاهُ، أَمَا بَعْدُ:

فبين أيدينا منظومة لطيفة في آداب التعلُّمِ والتفقُّهِ، اشتملتْ على ذكر شيءٍ من الآداب التي لايستغني عنها طالبُ العلم.

والنَّظمُ: خلاف النَّثر وهو: (الكلام الموزون المقَفَّى، من قولهم: نظَم الخَرَز ينظِمه نَظمًا: إذا جعله فى نِظامٍ وهو السِّلك الذى يضمُّه).

وهذه المنظومة أوردها الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله في كتابه: (جامع بيان العلم وفضله)، وقال عنها: (وأحسنُ ما رأيتُ في آداب التعلمِ والتفقُّهِ من النظم ما يُنسبُ إلى اللؤلويِّ من الرجزِ وبعضهم ينسبه إلى المأمون).

فصاحبُ هذا النظم غيرُ معروف على وجه الدِّقة:

فقيل: هو الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي أبو علي واشتهر باللؤلؤي نسبة إلى بيع اللؤلؤ، وكان أبوه من موالي الأنصار، قاض فقيه، من أصحاب أبي حنيفة، وليَ القضاء بالكوفة، وتوفي سنة: (٢٠٤هـ).

وقيل: هو الخليفة العباسي المأمون عبد الله بن هارون الرشيد عفى الله عنه، المتوفى سنة: (٢١٨هـ).

وهذه المنظومة من بحر الرجز، والرَّجز: بحر من بحور الشِّعر أصلُ وزنه: مستفعلن ست مرات، سمي رَجَزًا؛ لتقارب أجزائه، وقِلَّة حروفه.

وهو من أشهر البحور العربية استعمالًا مِنْ قِبَلِ الشعراء؛ لسهولته حتى سمَّاه بعضُ المتأخرين بــ: (حمار الشعراء) لكثرة ركوب الشعراء عليه.

ولسهولة نظمه استخدمه الشعراء في نظم المتون التعليمية، ليسهل ضبطها

وحفظها.

وقد كان أهل العلم يؤلفون المصنَّفات نظمًا ونثرًا في آداب طلب العلم ويولون ذلك عناية فائقة لما لمعرفة الآداب والعملِ بها من أثر عظيم في مسيرة طالب العلم، فالمرءُ قد يُحرم العلم بسبب عدم تأدبه بآداب طلب العلم.

وقد ألَّف العلماء رحمهم الله مصنفاتٍ في آداب طلب العلم ينبغي لكل من سلك طريق العلم أن يقرأ فيها ويعالج القصور الذي عنده في باب الآداب، والمصنفات في آداب طلب العلم كثيرة منها:

١- كتاب الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي.

٢- اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي.

٣- مقدمة المجموع شرح المهذب للنووي.

وقد شرحها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

٤- كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم، للزرنوجي.

٥- كتاب حلية طالب العلم للشيخ بكر أبو زيد.

وعليه شرح للشيخ ابن عثيمين.

٦- كتاب معالم في طريق طلب العلم للشيخ عبد العزيز السدحان.

ومما كُتب في آداب التعلمِ والتفقُّهِ: هذه المنظومة التي معنا، فقد اشتملت على خمسةٍ وثلاثين بيتًا، ونشرع مستعينين بالله تعالى في التعليق عليها، ونسأل الله العون والسداد والصدق والإخلاص، إنه سميع مجيب.

قال الناظم رحمه الله:

واعلم بأنَّ العلمَ بالتعلُّمِ والحفظِ والإتقانِ والتفهُّمِ

الشرح:

قوله: (**واعلم**)، الواو هنا للاستئناف، وواو الاستئناف أو الابتداء هي حرفٌ يُستخدَمُ للبدء بجملةٍ جديدةٍ تمامًا مستقلَّةٍ في معناها وإعرابها عن ما قبلها.

وكلمة: (**اعْلَمْ**) فعلُ أمرٍ مبنيٌّ على السكون، لا محلَّ له من الإعراب، وفاعله مستترٌ فيه وجوبًا، تقديره أنت.

وهذه الكلمة يُؤتَى بها عند ذكر الشيء الذي له أهميته الشرعية، لتنبيه وحثِّ السامع على الإصغاء لما سيذكرُ له، فهي أمرٌ بتحصيل العلم والتهيؤ لذلك.

ولا شكَّ أنَّ معرفة آدابِ التعلُّمِ والتفقُّهِ من أهم المهمات التي يجب على كل طالب علم أن يفهمها غاية الفهم، حتى لا يحرم المرءُ بركة العلم بسبب جهله بها، فاختيار الناظم رحمه الله لهذه الكلمة يعتبر من باب اختيار المقدمات المناسبة للكلام.

وقوله: (**بأنَّ**)، هذه اللفظة عبارة عن حرف الجرِّ الباء متصلًا بـ:(أنَّ)، المصدرية، وتستخدم للتوكيد والربطِ بين الجمل لتفسير أو تعليل ما قبلها.

وقوله: (**العلم**) المراد به: العلم الشرعي، يُحصَّلُ بفعل أسباب تحصيله.

وقد ذكر الناظم رحمه الله في هذا البيت أربعة أسباب لتحصيل العلم ولم يرد الاستقصاء، وذكر في البيت الخامس خمسة أسباب أخرى لتحصيل العلم يأتي بيانها في موطنها:

السبب الأول: التعلُّم.

فالمرء لَا يُولَدُ عَالِمًا، كما دلَّ على ذلك قول الله عَزَّ وَجلَّ: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئًا) [النحل: ٧٨]، أي: لا تعلمون

شيئًا مما أنتم بحاجة إلى معرفته إطلاقًا، (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ)، يعني: آلة السمع وآلة البصر، (وَالْأَفْئِدَةَ)، وهي العقول، والعقلُ مركزه في القلب على الصحيح، فجعل لكم كل هذه الحواس لتحصِّلوا العلم الذي كان مسلوبًا منكم عند ولادتكم، (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، نِعم الله عَزَّ وَجلَّ التي علمتموها، فتعملوا بموجب ذلك العلم من الشكر للمنعم المتفضل والقيام بحقوقه، وتصرفون كل آلة فيما خُلقت له، لا أن تستعملوها في معصية الرب عَزَّ وَجلَّ الذي أحسن إليكم، فلا يليق بالإحسان إلا الشكر عليه بإخلاص الطاعات وحسن الاتباع، فالعلم يُحصَّل بالتعلُّم.

والتعلُّم: جاء على وزن التفعُّل، وهذه الصيغة تفيد أمرين:

الأول: تكلُّف الفعل وحصوله بعد بذل الوسع والجهد.

الثاني: التدرُّج.

فالعلم الشرعي لا يُنال براحة الأجساد، بل يُحصل ببذل الجدِّ والاجتهاد في تحصيله، فكلُّ ما يكون سببًا في تحصيل العلم فإنه ينبغي لطالب العلم أن يكون حريصًا على فعله.

ويكون ذلك بتلقي العلم بنوعيه الألفاظ والمعاني على المشايخ وهذا هو الأصل، ويكون بكثرة الاطِّلاع بعد التأصيل العلمي، وبالرحلة في طلب العلم، ومذاكرته، وحفظه، والبحث في بطون الكتب، وشراء الكتب التي تعين على العلم، والسهر في العلم، وسؤال أهل العلم عما أشكل، وسماع الدروس والمحاضرات العلمية، ونحو ذلك فهذا كله داخل في تعلُّم العلم الشرعي.

ويكون التعلُّم بالتدرج في طلب العلم، فالعلم كما قيل: أودية مهما أخذت منه لن تُنقصه.

قال الزُهري رحمه الله ليونس بن زيد رحمه الله: " لا تُكابر العلم فإنَّ العلم أودية فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإنَّ من رام العلم جملة ذهب عنه جملة".

والشواهد الدالة على أنَّ العلم إنما يكون بالتعلُّم كثيرة منها:

أنَّ نبينا محمدًا ﷺ قد قال الله تعالى في شأنه: (وعلَّمك ما لم تكن تعلم)، وقد علَّمه الله بلسان جبريل عليه السلام، فكان متعلِّمًا عن جبريل عن رب العالمين ثم كان معلِّمًا للناس أجمعين.

وقد أخبر النبي ﷺ أنَّ العلم إنما يُنالُ بالتعلُّمِ، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «**إنما العلم بالتعلم**» رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد وحسنه بطرقه الألباني، وصحَّح إسناده موقوفًا عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

والصحابة رضي الله عنهم حصَّلوا العلم بالتعلُّم.

فقد قال أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله: (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل).

وهذا الأثر فيه تنبيه إلى أنَّ حفظ كلام الله جل وعلا وتدبُّر معانيه يحتاج إلى فعل الأسباب التي توصل لهذا المقصود، ومنها: طول الزمان، وعدم الاستعجال في تفهُّم معانيه، فطلب العلم كما يقال: من المهد إلى اللحد.

والشواهد على ذلك كثيرة.

والتعلُّم لا غنى لأحد عنه فيحتاجه المعلِّم والعالم، فإنه لا يوجد عالم متقن لجميع العلوم من جميع جوانبها كما دلَّ على ذلك قول الله تعالى: (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)، والمعنى: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كلِّ عالم.

فينبغي للعالم تعلم العلم الذي لم يمهَر فيه، ممن تمكَّن فيه.

قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام مع الخضر: (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) [الكهف: ٦٦].

قال السعدي رحمه الله: (ومنها [أي: فوائد قصة موسى مع الخضر]:

تعلُّم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهَّر فيه، ممن مَهَرَ فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة، فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر، ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه، فعلى هذا، لا ينبغي للفقيه المحدِّث، إذا كان قاصرًا في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدِّثًا ولا فقيهًا).

فطالب العلم عليه أن يحرص على مجالسة من ينتفع بعلمه ولو كان أقل منه علمًا في بعض الفنون، إذا كان ضابطًا لفنِّه الذي لم يضبطه المتلقي.

فأصحاب الفنون قد يكون عندهم ما ليس عندك فاستفد منهم ودع الكبر والعُجب، فهذا هو التواضع.

وقد قال وكيع بن الجراح رحمه الله: " لا ينبل الرجل من أصحاب الحديث حتى يكتب عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه".

فخذ العلم عن أهله وإن كانوا دونك في المنزلة الاجتماعية، أو كانوا دونك في النسب والحرية.

وقد روي عن عليِّ بن الحسين الملقب بزين العابدين وهو من أهل البيت أنه كان يجلس إلى أسلم مولى عمر، فقال له رجل من قريش: تدع قريشًا وتجالس عبد بني عدي؟ فقال عليٌّ: "إنما يجلس الرجل حيث ينتفع" رواه ابن سعد في الطبقات وغيره

فالعلم ليس حكرًا على أحد، لا من جهة النسب ولا من جهة البلد.

وقد جاء في فتح المغيث أنَّ حكيم بن حزام كان يقرأ على معاذ بن جبل، فقيل له: تقرأ على الخزرجي؟ فقال: "إنما أهلكنا التكبُّر".

فالتعلُّمُ هو المنهج القويم في تحصيل العلم الشرعي، وقد بدأ الناظم رحمه الله به لينفي الطرائق الأخرى التي سلكها بعض المخالفين في تحصيل العلم، ومنها:

تحصيل العلم بترويض النفس على العبادات، وقراءة الأوراد والأحزاب المبتدعة التي لم تؤخذ من علم الشريعة.

ومن أهل البدع مَنْ يرى أنه يأخذ العلم مباشرة عن الله تعالى حتى قال قائلهم مخاطبًا أهل النظر: (أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لايموت)

ومنهم من يزعم أنَّ العلم يُحصَّل عن طريق المنامات والرؤى، فابن عربي الصوفي زعم أنه ألَّف كتابه الكفريَّ فصوص الحكم بإذن النبي ﷺ في المنام.

ومنهم من يزعم أنَّ العلم يُحصَّل عن طريق الإلهام الذي يسمونه العلم اللدني، وهو ما يحصل من العلوم في القلب من غير استدلال ولا نظر.

ومنهم من يأخذ العلم عن طريق ما يُسمَّى بالهواتف، ومعناه: سماع حكايات بواسطة الأذن، وقد يكون منامًا يسمع الصوت ولا يرى صاحبه.

ومن الصوفيه من يدَّعي أنه يأخذ العلم عن طريق رؤية النبي ﷺ في اليقظة، والاستمداد منه.

ومنهم من يدَّعي أنه يأخذه عن طريق الكشف، ومعناه معرفة حقائق الوجود، بارتفاع الحجب الحسية عن القلب.

ومنهم من يدعى أخذه عن طريق الذوق، ويعنون به نورًا يقذفه الله في قلوب الأولياء يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره.

ومنهم من يدَّعي أخذه عن طريق الوجد، وهو ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف.

وكلُّ هذا مخالف لحديث: (إنما العلم بالتعلم).

ومن الأخطاء في باب التعلُّم: أخذ العلم من بطون الكتب بلا تتلمذ على الأشياخ، وهذه الطريقة مظنة لسوء فهم النصوص الشرعية.

وإلى هذا أشار الشافعي رحمه الله بقوله: (مَنْ تفقَّه من الكتب ضيَّع

الأحكام).

وقد قال القائل:

يَظُنُّ الْغَمْرُ أَنَّ الْكُتْبَ تَهْدِي ... أَخَا فَهْمٍ لِإِدْرَاكِ الْعُلُومِ
وَمَا يَدْرِي الجْهُولُ بِأَنَّ فِيهَا ... غَوَامِضَ حَيَّرَتْ عَقْلَ الْفَهِيمِ
إِذَا رُمْتَ الْعُلُومَ بِغَيْرِ شَيْخ ... ضَلَلْت عَنْ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ
وَتَلْتَبِسُ الْعُلُومُ عَلَيْك حَتَّى ... تَصِيرَ أَضَلَّ مِنْ تُوّمَا الْحَكِيمِ

وتوما جاهِل جهلًا مُرَكَّبًا يُسمُّونه الحَكيمَ، لكنه غرَّه أنهم سمَّوْه الحكيمَ، وبدَأَ يتكلَّمُ في كلِّ شيء، وكان منتسبًا إلى الطِّبِّ، وكان تطبُّبه من الكتب، وقد وقع التَّصحيف في بعض كتبه فكان يقرأ: (الحيَّة السوداء شفاء مِنْ كلِّ داء)، بدلًا من: (الحبَّة)، فتصحَّفت كلمة: (الحبَّة) إلى: (الحيَّة)، فأخذ حيَّة سوداء، وصار يعالج بها المرضى فمات بسبب تطبُّبه خَلْقٌ كثيرٌ.

ومن الأخطاء في باب التعلُّم: القراءة في كتب أهل البدع المشتملة على الشبهات وإنْ قلَّتْ.

فمن أعظم أسباب دخول البلاء على هذه الأمة:

النظر في كتب الشبهات والتلقي منها، وبعض أصحاب الشبهات عندهم فصاحة وبلاغة وقوة تعبير في تصانيفهم، ولهذا لا ينبغي لطالب العلم المبتدئ أن يقرأ في كتبهم، ومنها علوم الآلة، بحجة أنَّه يستحلي طريقتهم في التأليف والتدوين، وأن عندهم فوائد وإلمامًا بعلوم الآلة، فهذا ربما يقع في شراكهم وهو لا يشعر، لأنَّ أصحاب البدع يقرِّرون بدعهم في مؤلفاتهم وإنْ كانت من كتب علوم الآلة، وقد يفسِّرُ المبتدع بعض الألفاظ بما يوافق عقيدته.

ومثاله: ما فعله زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي في معجمه: (مختار الصحاح)، حيث فسَّر الاستواء بالاستيلاء مُوافقةً لعقيدته الأشعرية.

ومثله ما وقع في كتب شروح الحديث وكتب التفسير، فالتأليف فيها حسب معتقد المؤلف، ولهذا ينبغي للمرء أن يحذر من استحلاء طريقة أهل

البدع، سواءً السماعية أو المقروءة.

ومن الأخطاء المعاصرة في باب التلقي:

أخذ العلم عن طريق وسائل التواصل دون معرفة حال المتلقَّى عنه، حتى صار في زماننا من يستمع للمجاهيل، ولمن لا يُعرف بالعلم، ولا بسلامة المعتقد والمنهج، فكم يُنشر في وسائل التواصل ما لا يصحُّ من حكايات وقصص ووعظ وتذكير، وشبهات، فينبغي معرفة أوصاف العلماء وأهل العلم حتى يُتلقَّى العلم من طريقهم.

والعلماء وأهل العلم بحمد الله يُعرفون بتزكية العلماء لهم وبلزومهم لمذهب السلف، ويُعرفون بالرسوخ في العلم، وبالعمل به، وبخشية الله عَزَّ وَجلَّ فيما يظهر، ويعرفون بالإخلاص والصدق وعدم البحث عن الشهرة، ويُعرفون بالسلامة من الفتن بخلاف غيرهم، فإن الفتن تفضحهم، فلا تأتي فتنة إلا وتظهر العلماء ومن تشبه بهم وليس منهم، ويُعرفون بالزهد في الدنيا، وبالترفُّع عن الهوى، وبلزوم محاسن الأخلاق، ويُعرفون بآثارهم العلمية، من تدريسٍ وتصنيفٍ ونصحٍ وتوجيه.

السبب الثاني: الحفظ.

الحفظ أصل من أصول ضبط العلم، وكان السلف يولونه عناية شديدة.

فقد روى ابن أبي خيثمة بسنده إلى عامر الشعبي رحمه الله وهو فقيه من الفقهاء وإمام عظيم من أئمة المسلمين أنه قال: (**مَا كَتَبْتُ سَوْدَاءَ فِي بَيْضَاءَ**)، سوداء يعني: حبرًا، في بيضاء يعني: على ورق، ومقصوده: لم أخلط حبرًا على ورق في كتابة العلم، بسبب شدة حفظه، (**وَلَا سَمِعْتُ مِنْ رَجُلٍ حَدِيثًا فَأَرَدْتُ أَنْ يُعِيدَهُ عَلَيَّ**)، لشدة حفظه، وهذا فيه شدة حفظ بعض السلف للعلم.

وقد روى ابن أبي خيثمة أيضًا بسنده إلى عَلْقَمَةَ رحمه الله، قَالَ: "مَا سَمِعْتُهُ وَأَنَا شَابٌّ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي قِرْطَاسٍ أَوْ وَرَقَةٍ".

وهذا فيه أن المحفوظ في الصغر أكثر ثباتًا من المحفوظ في الكبر، إذا روجع وتمت مذاكرته فاستحضاره يسير.

والحفظ يشمل أمرين:

الأول: حفظ الصدر ويدخل في ذلك: حفظ المبنى واللفظ، وحفظ المعنى.

وحفظ المبنى واللفظ يكون للقرآن الكريم، وللمتون العلمية.

ومن الشواهد على عناية السلف بحفظ ألفاظ القرآن الكريم ما ذكره الذهبي رحمه الله في السِّير عن الأعمش رحمه الله أنه كان يَعْرِضُ القرآن فيُمسكون عليه المصاحف فلا يُخطئُ في حرفٍ واحد.

ومن الشواهد على عناية أهل العلم بحفظ ألفاظ المتون العلمية:

ما ذكره ابن حجر في تهذيب التهذيب عن عمر بن شبَّة رحمه الله قال: (أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة).

وحفظ المعنى يكون بكثرة تكرار الكتب المطوَّلة، ومنها كتب الشروح العلمية.

ومن الشواهد على عناية أهل العلم بتكرار قراءة الكتب:

ما جاء عن المزني رحمه الله أنه قال: (قرأت كتاب الرسالة للشافعي خمسمائة مرَّة ما من مرَّة منها إلا واستفدت فائدة جديدة لم أستفدها في الأخرى).

وفائدة تكرار القراءة للكتاب الواحد: ضبطه وفهمه ورسوخه واستحضار ما فيه.

الثاني: يشمل الحفظُ: تقييد العلم بالكتابة، وعلى طالب العلم أن يعتني بالجمع بينهما.

فمن فوائد ضبط الكتاب: أنه أسلم من طوارئ النسيان، فالمرء لا يدري ما يعرض له، فقد يصاب بآفةٍ أو بمرضٍ فيضعف حفظه.

والإنسان في مرحلة صغره وشبابه قد يكون جانب الحفظ عنده قويًا، لكن كلما كبرتْ سنُّه ضعف حفظه، فإذا جمع بين نوعي الحفظ فقد حصَّل خيرًا كثيرًا، فإذا نسي ما حفظه رجع إلى كتابه الذي خط فيه العلم.

وقد جاء في الحديث الذي رواه الدارمي وغيره أن النبي ﷺ قال: «**قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ**»، ففي هذا الحديث الحث على حفظ العلم بواسطة الكتابة، ويدخل في ذلك تقييد النوازل والفتاوى.

فإن تيسر حفظُ العلم فحسن، وإلا فلا يُفرِّطِ المرءُ في كتابة العلم.

وقد جاء عن بعض السلف في باب التحديث أنهم كانوا لا يُحدِّثون إلا من كتاب، وهذا من احتياطهم أنْ لا يرووا شيئًا بالمعنى، وأنْ لا يقعوا في غلطٍ أو خطأ.

قال الإمام الذهبي رحمه الله في السير: (الوَرَعُ أنَّ المحدِّثَ لا يحدِّث إلا من كتاب، كما كان يفعل ويوصي به إمام المحدثين أحمد بن حنبل رضي الله عنه).

وكان أيضًا على مذهب الإمام أحمد رحمه الله علي بن المديني، وقد قال رحمه الله: (ليس في أصحابنا أحفظ من أبي عبد الله أحمد بن حنبل، وبلغني أنه لا يحدث إلا من كتاب، ولنا فيه أسوة).

وأولى ما ينبغي أن يُعتنى بحفظه حفظ القرآن الكريم والأحاديث وحفظ أصول العلم وقواعده سواء كانت منثورة أو منظومة.

وبعضهم يُفضِّل حفظ النظم؛ لأنَّه أيسر في الحفظ والبقاء في الذهن من النثر، كما قال القائل:

لكنَّ حفظ النثر ليس يخلو ... من نوع عُسرٍ والنظام يحلو

فالنظم يضبط لك شتات مسائل العلم.

والآثار الواردة عن العلماء المتقدمين في تقرير مكانة الحفظ يطول ذكرها.

فقد وردت عنهم آثارٌ كثيرة في ذكر فوائد الحفظ، بل في ذكر الأماكن التي يُحفظ فيها والأزمنة المناسبة للحفظ وما يعين على الحفظ.

ومما ورد عنهم قولهم: (من حفظ المتون فاز بالفنون).
وذكر الذهبي رَحِمَهُ اللهُ في السِّير: أنه لما أحرق المعتضد بن عبَّاد كتب ابن حزم، قال ابنُ حزم:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي   تضـمَّنه القرطاس بل هو في صـدري
يســير معي حيث اســتقلتْ ركائبي   ويـنـزِلْ إنْ أنزِلْ ويُـدفَنُ في قبري

ومن طرائف ما قيل في الحث على حفظ العلم قول الشاعر:

عليك بالحفظ دون الجمع في كتبٍ   فـإن لـلكـتـب آفـاتٍ تُـفـرِّقـهـا
المـاء يُـغـرقـهـا والـنـار تُـحرقـهـا   والفـأر يخرقهـا واللص يســرقهـا

والجمع بين الحفظ والكتابة حَسَنٌ كما تقدَّم بيانه.

ومن الأسباب التي يُستعان بها على حفظ العلم الشرعي:

مراجعته وتكراره ومذاكرته مع غيرك، وكتابته، والعمل به، والبعد عن المعاصي والآثام.
قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: قال بعض السلف: "كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به".
وكان السلف رَحِمَهُم اللهُ يوصون تلامذتهم بالبعد عن المعاصي لأنها سبب في حرمان العلم وحفظه، كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي   فأرشــدني إلى ترك المعاصــي
وقــال اعلم بأنَّ العلم نور   ونور الله لا يؤتاه عــاصــي

وقال الإمام مالك للشافعي في أول ما لقيه: "إني أرى اللَّه قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بظلمة المعصية" رواه البيهقي في "مناقب الشافعي.
فعلى طالب العلم أن يحاسب نفسه خاصة في أوقات خلواتها، وأن يحذر شؤم المعاصي والذنوب، فإنَّ العبد ليحرَمُ الرزقَ - ومنه العلم الشرعي- بالذنبِ يُصِيبُه.

ومن المناسب التنبيهُ إلى وجوب الحذر من طريقة ينتهجها بعض أهل الأهواء، مع بعض الناشئة في العلم، وهي إشغالهم بالحفظ وحده دون العناية بتعليمهم العلم العيني.

فتجد بعض الحركيين يُشغلون الشابَّ الحدَثَ بالحفظ سنين طويلة ويقولون له: ابدأ بحفظ القرآن، فيعتكف سنين في ذلك، وفي هذه الفترة ينشغلون بتربيته التربية الحزبية، فلا ينتهي من حفظ كلام الله جَلَّ وَعلا إلا وهو خارجيٌّ قد لُقِّن أفكار الخوارج فصار يقرأ القرآن لايجاوز حنجرته.

وقريب من هذا أُناس يُزهدون في اقتناء كتب أهل العلم وفي شرائها، ويحذِّرون من حضور حلق العلم بحجة أنها تُشغل عن القرآن الكريم.

فالموقف المعتدل أن يعتني المرء بكتاب الله جَلَّ وَعلا حفظًا وفقهًا، وأن يعتني بتعلُّم العلم العيني الواجب تعلمه، ولا يكتفي بالحفظ وحده.

السبب الثالث: الإتقان.

ومعناه: الإحكام والتجويد.

ويدخل في ذلك: ضبطُ العلم وتفهُّمه بدقة عالية ومعرفة الأدلة بعللها، وضبط القواعد الكلية وما تيسَّر من جزئياتها، والتلقي والسماع من الأشياخ، وسؤالهم عن ما أشكل عليك، وحفظ العلم حفظًا متقنًا، والقدرة على التعبير عن العلم بلغة العلم، ونحو ذلك.

فالعلم عبادة، والعبد عليه أن يستحضر حال قيامه بالطاعة نظر الله إليه ومراقبته لعمله، فهذا يوجب له بذل الجهد في تحسين عمله وتكميله وإتمامه.

السبب الرابع: التفهم.

وتفهُّم العلم: هو فهمه شيئًا بعد شيءٍ، فالتفهم يحتاج إلى التدرج في تلقي العلم.

ومن صفات أهل الفقه على الحقيقة: تفهم النصوص الشرعية، ويكون ذلك بفهم معانيها، وفهم حِكَمِها وأسرارها، لأنَّ الدين مأخوذ منها، ومن

رزقه الله تعالى فهم النصوص الشرعية فقد أوتي خيرًا كثيرًا، من أعظمه: الاهتداء لمراد الله تعالى، والقيام بأمره والفوز برضاه.

وقد روى أَبُو خَيْثَمَةَ بسنده إلى عليٍّ رضي الله عنه أنه قال:" وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا فِقْهَ فِيهِ"، يعني: لا فهم فيه للنصوص.

فجمْعُ العلم وحده دون فهم معانيه لا نفع فيه، إلا في قراءة القرآن الكريم الذي يُقرأ ليُحصِّل به القارئُ أجر التلاوة، لكن الانتفاع التام الذي يعود على القلب بالصلاح لا يحصل للعبد إلا بالتدبُّر والتفهُّم.

۞۞۞۞۞

https://t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah

قال الناظم رحمه الله:

والعِلْمُ قـد يُرْزَقُـهُ الصـغيرُ — فِي سِـنِّـهِ وَيُحْـرَمُ الْـكَـبِـيرُ

الشرح:

العلم رزق معنويٌّ، وفضل من الله تعالى يناله من اجتهد في طلبه، صغيرًا كان أم كبيرًا.

ومما يدل على أنَّ العلم فَضْلٌ من الله عزَّ وجلَّ:

قول الله سبحانه مخبرًا عن موسى في قوله للخضر عليهما السلام: (هل أتَّبعك على أنْ تُعَلِّمَنِ مما علمت رشدًا)، أي: مما علَّمك الله تعالى.

وجاء في الحديث: (وإنما أنا قاسم ويعطي الله) رواه البخاري ومسلم، وفي رواية عند البخاري: (والله المعطي وأنا القاسم)، أي: إنما أنا أقسم ما أمرني الله بقسمته، والمعطي حقيقة هو الله تعالى، فالأمور كلها بتقدير الله تعالى والإنسان مصرَّف مربوب، فيتعيَّنُ إضافةُ العلمِ وغيرِهِ من الفضائلِ إلى فضلِ اللهِ ورحمتِهِ، والاعترافُ بذلكَ، وشكرُ اللهِ تعالى عليهِ.

و: **(قد)**، **في قوله**: **(قد يُرْزَقُهُ)** للتقليل؛ لأنَّ غالب من يُرزقُ العلم من الكبار.

وقد تكون بمعنى: ربَّما، والمعنى: أنَّ الصغير ربَّما يكون أعلم من الكبير مطلقًا، وربَّما يكون أعلم في مسائل من العلم، فالصغيرُ في السِّن قد يفوق في العلم كبار السِّنِّ إذا بذل الأسباب في طلب علم الكتاب والسنة، مع الإخلاص لله في طلب العلم، وسؤاله العلم النافع، والاستعانة به، والافتقار إليه، وأخذ العلم عن أهله، واجتناب المعاصي التي تقع من بعض المنتسبين إلى العلم ومنها الوقوع في الكبر والعجب والحسد والعجلة والطَّيش، والحياء عن السؤال عن ما لا يعلم، وعدم العمل بالعلم، ونحو ذلك.

ومن وصايا السلف للشباب في الحرص على طلب العلم:

ما جاء عَنْ قَابُوس بْنِ أَبِي ظَبْيَانَ، قَالَ: "صَلَّيْنَا يَوْمًا خَلْفَ أَبِي ظَبْيَانَ

صَلَاةَ الْأُولَى وَنَحْنُ شَبَابٌ كُلُّنَا مِنَ الْحَيِّ إِلَّا الْمُؤَذِّنَ فَإِنَّهُ شَيْخٌ، فَلَمَّا سَلَّمَ، الْتَفَتَ إِلَيْنا، ثُمَّ جَعَلَ يَسْأَلُ الشَّبَابَ: مَنْ أَنْتَ؟ مَنْ أَنْتَ؟ فَلَمَّا سَأَلَهُمْ قَالَ: "إِنَّهُ لَمْ يُبْعَثْ نَبِيٌّ إِلَّا وَهُوَ شَابٌّ، وَلَمْ يُؤْتَ الْعِلْمَ خَيْرٌ مِنْهُ وَهُوَ شَابٌّ" رواه ابن أبي خيثمة في كتاب العلم.

فقوله: **وَلَمْ يُؤْتَ الْعِلْمَ خَيْرٌ مِنْهُ وَهُوَ شَابٌّ"**: يعني: لم يَطلُبِ المرءُ العلمَ خير من طلبه له وهو في زمن الشباب، لأنه وقت النشاط المعِين على تحصيل العلم وعلى حضوره الدروس وعلى الحفظ وعلى المذاكرة وعلى البحث والتنقيب في كتب أهل العلم وعلى بثِّ العلم.

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ: " التَّفَقُّهُ فِي زَمَنِ الشَّبِيبَةِ وَإِقْبَالِ الْعُمُرِ، وَالتَّمَكُّنُ مِنْهُ بِقِلَّةِ الْأَشْغَالِ، وَكَمَالِ الذِّهْنِ وَرَاحَةِ الْقَرِيحَةِ يَرْسُخُ فِي الْقَلْبِ وَيَثْبُتُ وَيَتَمَكَّنُ وَيَسْتَحْكِمُ فَيَحْصُلُ الِانْتِفَاعُ بِهِ وَالْبَرَكَةُ إِذَا صَحِبَهُ مِنَ اللَّهِ حُسْنُ التَّوْفِيقِ وَإِذَا أُهْمِلَ إِلَى حَالَةِ الْكِبَرِ الْمُغِيرَةِ لِلْأَخْلَاقِ النَّاقِصَةِ لِلْآلَاتِ كان كما قال الشاعر:

إِذَا أَنْتَ أَعْيَاكَ التَّعَلُّمُ نَاشِـئًا   فَمَطْلَبُهُ شَـيْخًا عَلَيْكَ شَـدِيدُ

فهذا الأثر فيه الحث على استغلال أوقات الشباب في العناية بأعظم مطلوب وهو العلم الذي يُعرِّف بالله جَلَّ وَعلا وبمراده منَّا.

وقد ذكر النووي رحمه الله في مقدمة المجموع أثر سفيان الثوري رحمه الله: "إذا تزوج الفقيه فقد ركب البحر فإن ولد له فقد كسر به".

وفي هذا الحثُّ على طلب العلم زمن الصغر والشباب قبل الزواج وحصول العوارض.

ومما ورد في الحثِّ على التعلُّمِ في الصغر قول بعضهم: (حفظ الغلام الصغير كالنقش في الحجر وحفظ الرجل بعد ما يكبر كالكتابة على الماء)، أي: فإن حفظه لا يثبت كما لا تثبت الكتابة على المائع كالماء لضعف حواسه، فمرحلة الكبر مرحلة تفهم لحقائق الأشياء أكثر منها مرحلة تلقين،

وأما الصغير فينطبع حفظه في صورته الإدراكية، ولا يزول عنها كما لا يزول النقش في الحجر وقيل لبعضهم: التعليم في الصغر كالنقش في الحجر فقال: الكبير أوفر عقلًا لكنه أكثر شغلًا.

فعلى الشاب أن يجتهد في طلب العلم الشرعي قبل أن يصل إلى الأماكن التي يحتاجه الناس فيها.

فقد جاء عند الدارمي وغيره عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: "**تَعَلَّمُوا**": والتعلم هو بذل الوسع في طلب العلم، " **فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَتَى يَخْتَلُّ إِلَيْهِ**": وهذه الكلمة مأخوذة من الخَلَّة -بفتح الخاء- وهي: الحاجة والافتقار.

والضمير في قوله: " **إليه**" يحتمل أن المراد به المتعلم، فإنه لا يدري متى يحتاج الناس إليه وإلى علمه.

وهذا مشاهد في زماننا، فإن المرء في مرحلة شبابه قد يبتلى بالإمامة والخطابة، فيحتاج المصلون إليه في تعليمهم وإرشادهم.

وقد يُعيَّنُ المرء في التدريس الرسمي الوظيفي، فيحتاج الناس إليه، وقد يُبتلى بالقضاء مع صغر سنه.

فإذا وصل إلى هذه المراتب وحصيلته العلمية ضعيفة جدًا فإنه لا يحصل النفع التامُّ من ورائه، بل قد تحصل الفتنة بسبب وصوله إلى هذه الأماكن، لأنه قد يقول على الله بغير علم، وقد يعرض له من الأمور ما يكون سببًا في عدم انتفاع الناس بعلمه.

وقد يعود الضمير إلى العلم، فالمرء لا يدري متى يحتاج هو إلى العلم، فقد يقع منه شيء بسبب جهله فتعرض له مواقف يعرف فيها قدر العلم، فالمرء لا يدري متى يحتاج إلى العلم.

مثال ذلك: قد يُبتلى الشابُّ بالإمامة في الصلاة، فإذا كان لا يعرف أحكام الصلاة ولا أحكام سجود السهو مثلًا، فإذا عرض له شيء في صلاته فحينئذٍ يعرف قدْرَ العلم ومكانته.

هذا هو المعنى الثاني، والمعنيان صحيحان.

فعلى الشاب أن يبذل وسعه في التعلُّم بملازمة مجالس العلم من الصغر وسماع الدروس في المواقع الموثوقة، والسؤال عما أشكل عليه، والنظر في حاله قبل التلبس فيما أراد من العبادات.

وتعظم الحاجة إلى التعلم في زماننا هذا، لكثرة الشُبه التي يبثها أهل الضلال في وسائل التواصل بأنواعها، ولهذا ما تسلطت المذاهب الفكرية المعاصرة، ولا تسلطت طوائف الانحراف بأنواعها على بعض الشباب، إلا لأنهم وجدوا أمامهم بيئةً تستقبل ما يرد إليها بسبب جهلها، وعلى الإنسان أن لا يحقر نفسه، فبعض الناس يقول: من أنا حتى يحتاج الناس إليَّ؟ وهذا من تلبيس الشيطان على الشاب في حداثة سنِّه.

وإليكم هذا الأثر الدالَّ على أن الإنسان لا يدري متى يحتاج الناس إليه، فقد روى ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ في جامع بيان العلم وفضله، عن ابن عباس رَضِي اللهُ عَنْهُما قال: لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا شَابٌّ، قُلْتُ لِشَابٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا فُلَانُ هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلْنَتَعَلَّمْ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَثِيرٌ، قَالَ :الْعَجَبُ لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَتَرَى أَنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْكَ وَفِي الْأَرْضِ مِنْ تَرَى مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: فَتَرَكْتُ ذَلِكَ وَأَقْبَلْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ وَتَتَبُّعِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنْ كُنْتُ لَآتِي الرَّجُلَ فِي الْحَدِيثِ يَبْلُغُنِي أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَجِدُهُ قَائِلًا فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ تُسْفِي الرِّيحُ عَلَى وَجْهِي حَتَّى يَخْرُجَ، فَإِذَا خَرَجَ قَالَ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَكَ؟ فَأَقُولُ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُ بِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: فَهَلَّا بَعَثْتَ إِلَيَّ حَتَّى آتِيَكَ، فَأَقُولُ: أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ فَكَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ بَعْدَ ذَلِكَ يَرَانِي وَقَدْ ذَهَبَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاحْتَاجَ إِلَيَّ النَّاسُ فَيَقُولُ: كُنْتَ أَعْقَلَ مِنِّي".

فالإنسان لا يدري متى يحتاج الناس إليه، فعليه أن يجتهد في طلب العلم في

حداثة سنِّه، حتى يكون مهيئًا للتعليم إذا احتيج إليه.

والوصية للمعلمين أن يعتنوا بتنشئة الصغار والشباب تنشئة علمية، ويبذلوا الوسع في تأليفهم وحثِّهم على طلب العلم.

ومما جاء في حرص السلف على تألف الطلاب ما رواه ابن أبي خيثمة في كتاب العلم أنَّ عروة بن الزبير ﵁ لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ: (ائْتُونِي فَتَلَقُّوا مِنِّي)، أي: خذوا عني العلم، وهذا من تألُّف الطلاب، وخاصة إذا وجد منهم عدم الرغبة في طلب العلم، وإلا فالأصل أنَّ الطلاب هم الذين يبحثون عن العلم وأهله.

وقد قال الزهري رحمه الله: (هَوَانٌ بالعلم أن يحمله العالم إلى بيت المتعلِّم).

لكن مع جهل الصغار بحقيقة العلم الشرعي، وكثرة الصوارف عن العلم فإنَّ تألفهم من حسن أدب المعلم.

والكبير قد يحرمُ العلم بسبب عدم حرصه على تلقيه عن أهله، أو بسبب استكباره عن التسليم للصغير إذا تكلَّم بعلمٍ، فعليه أن يُهيئ نفسه لقبول العلم وأخذه ممن كبر أو صغر.

قَال الإمام البُخَارِيُّ رحمه الله: (وقَالَ عُمَرُ ﵁: تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا)، يعني: تَفَقَّهُوا في الدين قبل حلول الصوارف والشواغل التي تمنع من الازدياد من طلب العلم، وقول عمر ﵁: " **قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا**": هذا الكلام لا مفهوم له، والمعنى: ليست السيادة غاية الطلب، لكن السيادة مُشغلة عن طلب العلم الشرعي.

ولهذا قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ مُعلقًا: "وبعد أن تسودوا"، يعني: تفقَّهوا قبل أن تسوَّدوا وبعد أن تسوَّدوا.

ثم قال البخاري رحمه الله: "وقد تعلم أصحاب النبي ﷺ في كِبَرِ سنهم".

وهذا دليل على أن التفقُّه ليس خاصًا بسنٍّ من مراحل العمر.

وقد جاء في كتاب الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي رحمه الله عن الزُّبَيْرِ

بْن بَكَّارٍ قَالَ: دَخَلَ يَوْمًا مَنْصُورُ بْنُ الْمَهْدِيّ عَلَى الْمَأْمُونِ وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْفِقْهِ فَقَال: (مَا عِنْدَكَ فِيمَا يَقُولَ هَؤُلَاءِ؟) قَالَ: (يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَغْفَلُونا فِي الْحَدَاثَةِ، وَأَشْغَلَنَا الطَّلَبُ عِنْدَ الْكِبَرِ عَنِ اكْتِسَابِ الْأَدَبِ) قَالَ: (لِمَ لَا تَطْلُبُهُ الْيَوْمَ وَأَنْتَ فِي كِفَايَةٍ؟) قَالَ: (أَوَ يَحْسُنُ بِمِثْلِي طَلَبُ الْعِلْمِ؟) قَالَ: (وَاللَّهِ لِأَنْ تَمُوتَ طَالِبًا لِلْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَعِيشَ قَانِعًا بِالْجَهْلِ)، قَالَ: (وَإِلَى مَتَى يَحْسُنُ؟) قَالَ: (مَا حَسُنَتْ بِكَ الْحَيَاةُ).

فعلى الإنسان أن يطلب العلم من صغره إلى أن يلقى الله عَزَّ وَجلَّ؛ لأنَّ العلم الشرعي عبادة، والعبادة لا تنقضي إلا بالموت، كما قال الله تعالى: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)، أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات حتى يأتيك الموت.

ولما سُئِل الإمام أحمد رحمه الله: إلى متى تطلب العلم؟ قال: (من المِحبرة إلى المقبرة).

وجاء في ذيل طبقات الحنابلة عن ابن عقيل الحنبلي رحمه الله أنه قال: (وَإِنِّي لَأَجِدُ مِنْ حِرْصِيْ عَلَى العِلْمِ وَأَنَا فِي عَشْرِ الثَّمَانِيْنَ أَشَدُّ مِمَّا كُنْتُ أَجِدُهُ وَأَنَا ابنُ عِشْرِيْنَ سَنَةٍ).

وقال الزرنوجي رحمه الله: (دخل حسن بن زياد في التفقه وهو ابن ثمانين سنة).

وجاء في نفح الطيب وغيره أنَّ ابن مالك صاحب الألفية رحمه الله يقال: (إنه حَفِظَ يوم موته عدة أبيات حدَّها بعضهم بثمانية، لقَّنها إياه ابنه)، وهو على فراش الموت.

❁❁❁❁❁

قال الناظم رحمه الله:

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ لَيْسَ بِرِجْلَيْهِ وَلَا يَدَيْهِ
لِسَانُهُ وَقَلْبُهُ الْمُرَكَّبُ فِي صَدْرِهِ وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَبُ

الشرح:

نبَّه الناظم هنا إلى أهمية عناية طالب العلم بإصلاح لسانه وقلبه؛ لما في صلاحهما وفسادهما مِنْ أثرٍ عظيم.

وقوله: **(وإنما المرء بأصغريه)**، هذا من أمثال العرب، فإنهم يقولون: **(المرء بأصغريه)**، **والمراد**: أنَّ قيمته تبع لصلاح لسانه وقلبه، وقيل لهما الأصغران؛ لِصغر حجمهما، ثم فسَّر الأصغرين بقوله:

لِسَانُهُ وَقَلْبُهُ الْمُرَكَّبُ فِي صَدْرِهِ وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَبُ

فإذا سَلِمَ اللسانُ استعمله طالب العلم فيما ينفع من تلاوةٍ وحفظٍ للقرآن، وقراءة في كتب العلم، وحفظٍ للعلم، وكثرةِ ذكرٍ لله تعالى، ومدارسةٍ للعلم مع أقرانه وغيرهم، ودعوةٍ إلى الله تعالى، وأمرٍ بمعروف ونهي عن منكرٍ، ونحو ذلك.

وإذا فسد اللسان وقع المرء في الكلام المحرم، من غيبة ونميمة وكذب، وبذاءة لسان، وشتم ولعن، وتعليم ما لا نفع فيه كعلم الكلام، أو تكلُّمٍ في العلم الذي لا يترتب عليه ثمرة، أو وقوع في الجدال المذموم والمراء، أو وقوع في التكفير أو التبديع بدون علمٍ، ونحو ذلك من آفات اللسان.

وقد ورد في حديث أنس بن مالك ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: (رحم اللهُ امرءًا تَكَلَّمَ فَغَنِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ) أخرجه البيهقيُّ، وحسنه بطرقه الألباني.

فعلى طالب العلم أن يحفظ لسانه، وقد كان السلف يحذرون من فضول الكلام وكانوا يقولون: (ما شيءٌ أحوجُ إلى طول السجن من اللسان).

وقال الماوردُّي رحمه الله في كتابه " أدب الدنيا والدين": (وَاعْلَمْ أَنَّ لِلْكَلَامِ شُرُوطًا لَا يَسْلَمُ الْمُتَكَلِّمُ مِنْ الزَّلَلِ إلَّا بِهَا، وَلَا يَعْرَى مِنْ النَّقْصِ إلَّا بَعْدَ أَنْ يَسْتَوْفِيَهَا وَهِيَ أَرْبَعَةٌ: **فَالشَّرْطُ الْأَوَّلُ**: أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ لِدَاعٍ يَدْعُو

إِلَيْهِ إِمَّا فِي اجْتِلَابِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضَرَرٍ، **وَالشَّرْطُ الثَّانِي**: أَنْ يَأْتِيَ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ، وَيَتَوَخَّى بِهِ إِصَابَةَ فُرْصَتِهِ، **وَالشَّرْطُ الثَّالِثُ**: أَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ، **وَالشَّرْطُ الرَّابِعُ**: أَنْ يَتَخَيَّرَ اللَّفْظَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ.

فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ شُرُوطٍ مَتَى أَخَلَّ الْمُتَكَلِّمُ بِشَرْطٍ مِنْهَا فَقَدْ أَوْهَنَ فَضِيلَةَ بَاقِيهَا).

وعلى المرء وبخاصَّة طالب العلم الاعتناء بصلاحِ قلبه وسلامتِه.

والناظم يقول: (**وَقَلْبُهُ الْمُرَكَّبُ فِي صَدْرِهِ وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَبُ**)، فالقلب خلْقٌ عجيب، وهو عبارة عن اللحم الصنوبري المودع في الجانب الأيسر من الصدور وفي باطنه دم أسود ينبعث منه بخار لطيف يسري إلى سائر البدن ويحدث منه الحواس الظاهرة والباطنة والحيوانات كلُّها متشاركة في هذا النوع من القلب ولهذا يسمى الروح الحيواني.

فطالبُ العلم يسمو قدره وتعلو درجته ومنزلته عند الله جل وعلا وعند خلقه بقدر ما يكون له من استقامة وطهارة قلب وسلامة صدر وحبٍّ لإخوانه الصالحين، وبعد عن الشَّرِّ والأذى.

ومن أسبابِ صلاح القلب وحياتِه كما ذكر ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين: جمعُ القلبِ على اللَّه عز وجل بأنْ يكونَ اللَّهُ وحده هو غايةَ طلبِ العبدِ، ونهايةَ قصده، وأنْ يكونَ وجهُه الأعلى: هو كلَّ بغيته.

وقد جاء في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: " أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ " رواه البخاري ومسلم.

فعلى العبد أن يعتني بسلامة قبله، والسلامةُ الكاملة للقلب قال عنها ابنُ القيم رحمه الله في كتابه الداء والدواء: (والقلب السليم: هو الذي سلم من الشرك، والغِلّ، والحقد، والحسد، والشحّ، والكبر، وحبّ الدنيا والرياسة، فسلِمَ من كلّ آفة تُبعده من الله، وسلِمَ من كلِّ شبهة تعارض خبرَه، ومن كلِّ شهوة تعارض أمرَه، وسلِمَ من كل إرادة تزاحم مراده، وسلِمَ من كلّ قاطع

يقطع عن الله.

فهذا القلب السليم في جنَّة معجَّلة في الدنيا، وفي جنَّة في البرزخ، وفي الجنّة يوم المعاد ولا تتمُّ له سلامته مطلقًا حتى يسلَم من خمسة أشياء: من شركٍ يناقض التوحيد، وبدعةٍ تخالف السنّة، وشهوةٍ تخالف الأمر، وغفلةٍ تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة حُجُب عن الله، وتحتَ كل واحدٍ منها أنواع كثيرة تتضمَّن أفرادًا لا تنحصر).

فعلى العبد أن يتعاهد قلبه ويطهِّره حتى يجد أثر العلم عليه؛ لأنَّ موضع قرار العلم النافع هو القلب، والقلوب المريضة إذا جاءها الوحي لم يجد محلًّا قابلًا بل يجدها غافلة معرضة، أو معارِضة، فيكون كالمطر الذي يمرُّ على السِّباخ والرِّمال والصخور، فلا يؤثر فيها شيئًا، والقلبُ كالأرض التي يوضع فيها البذر، فإن كانت الأرض طيِّبة أنبتت الكلأ الطيِّب وإن كانت نجسة تولَّدتْ منها النجاسات.

وفي ذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه نقض المنطق في وصف عِلْمِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: (وإلا فعلمُ ابن عباسٍ كالبحر، وفقهُه واستنباطُه وفهمُه في القرآن بالموضع الذي فاقَ به الناس، وقد سَمِعُوا ما سَمِع وحَفِظوا القرآن كما حَفِظه، ولكنَّ أرضه كانت مِن أطيب الأراضي وأقبَلِها للزَّرع، فبَذَر فيها النصوصَ، فأنبتت من كلِّ زوجٍ كريم، وذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

وعلى من ابتلي بأمراض القلوب أن يسعى في إصلاح قلبه، وقد قيل: (دَوَاءُ الْقَلْبِ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ: مُجَالَسَةُ الصَّالِحِينَ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، وَإِخْلَاءُ الْبَطْنِ مِنَ الْحَرَامِ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ، وَالتَّضَرُّعُ عِنْدَ الصُّبْحِ).

۞۞۞۞۞

قال الناظم رحمه الله:

وَالْعِلْمُ بِالْفَهْمِ وَبِالْمُذَاكَرَةِ وَالدَّرْسِ وَالفِكْرَةِ وَالْمُنَاظَرَةِ

الشرح:

ذكر الناظم رحمه الله هنا خمسة أسباب لتحصيل العلم، وهي ما يلي:

السبب الأول: الفهم.

والفهمُ معناه: " حُسْنُ تصور المعْنى، وَجَوْدَةُ استعدادِ الذِّهْن للاستنباط".

ومرتبةُ الفهم فوق مرتبة العلم، فهي أخصُّ منه، لأنَّ الفهم فيه إدراكٌ خفيٌّ دقيقٌ، أمَّا العلم ففيه نفس الإدراك سواء كان خفيًا أو جليًا.

ومن كان ذا فهم كان ممدوحًا عند العلماء؛ لأنه يفقه ما يسمع، ويظهر أثره في العمل.

قال الذهبي في الإمام محمد بن مَخْلَدِ بن حفصٍ الحافظ: (كتب ما لايوصف كثرة، مع الفهم والمعرفة وحسن التصانيف).

ومَنْ نزلت رتبته عن الفهم السليم كان مقدوحًا فيه.

فهذا عَفَّانُ بْنُ مُسْلِمٍ الصَّفَّارُ قال فيه سليمان بن حرب فيما رواه عنه ابن عَدِيٍّ: (كان بطيئًا رديء الحفظ، بطيء الفهم).

وقد أشار أهل العلم إلى شرف وفضل الفهم، ومن ذلك:

أنَّ الإمام البخاريَّ رحمه الله عقدَ في صحيحه بابًا سمَّاه: (بَابُ الْفَهْمِ فِي الْعِلْمِ)، أي: فضل الفهم في العلوم، وأراد البخاري في هذا الباب أن يثبت بالأحاديث الصحيحة أنَّ الفهم قدر زائد على العلم الذي هو مطلق الإدراك، لأنه قوة ذهنيَّة يتوصل بها إلى استنباط الأشياء الدقيقة التي قد يصل إليها الفهم ولا يصل إليها العلم.

فيجب على طالب العلم أن يعتني بجانب حسن الفهم للنصوص الشرعية، ويكون ذلك بفهم ما يعين على ضبطها من العناية بفهمها وفق فهم السلف، وفهم ما يعين على فهمها من لغة العرب، مع العناية بضبط

قواعد الاستدلال، وهذا لا يحصل إلا بالدراسة الجادَّة لكتب أهل العلم وأخذ العلم عن أهله مع اللجوء إلى الله تعالى أن يمنَّ عليك بصحة الفهم، فحُسن الفهم عن الله تعالى وعن رسولِه ﷺ أصل كلِّ استقامةٍ وهدايةٍ في الدِّين والدُّنيا.

والناظرُ في غالب أسباب ضلال الفرق المنتسبة للإسلام يلحظ أنَّها نشأت بسبب سوء فهم أصحابها للنصوص الشرعية، وربما صاحبَ ذلك سوء القصد، فأفضى بهم ذلك إلى العمل بالمتشابه وترك المحكم، والقول بالمجاز دون قيود وضوابط، والوقوع في التأويل الفاسد، وتفويض معاني كلام الله تعالى.

قال ابن القيم رحمه الله: " صِحَّةُ الْفَهْمِ وَحُسْنُ الْقَصْدِ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى عَبْدِهِ، بَلْ مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ عَطَاءً بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ وَلَا أَجَلُّ مِنْهُمَا، بَلْ هُمَا سَاقَا الْإِسْلَامِ، وَقِيَامُهُ عَلَيْهِمَا، وَبِهِمَا يَأْمَنُ الْعَبْدُ طَرِيقَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ الَّذِينَ فَسَدَ قَصْدُهُمْ وَطَرِيقَ الضَّالِّينَ الَّذِينَ فَسَدَتْ فُهُومُهُمْ، وَيَصِيرُ مِنْ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ الَّذِينَ حَسُنَتْ أَفْهَامُهُمْ وَقُصُودُهُمْ، وَهُمْ أَهْلُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِينَ أُمِرْنَا أَنْ نَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَنَا صِرَاطَهُمْ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، وَصِحَّةُ الْفَهْمِ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالْفَاسِدِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَيَمُدُّهُ حُسْنَ الْقَصْدِ، وَتَحَرِّي الْحَقَّ، وَتَقْوَى الرَّبِّ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَيَقْطَعُ مَادَّتُهُ اتِّبَاعَ الْهَوَى، وَإِيثَارَ الدُّنْيَا، وَطَلَبَ مَحْمَدَةِ الْخَلْقِ، وَتَرْكَ التَّقْوَى ".

والفهم يحتاج إلى تدبُّر وطول زمان وعدم عجلة، فقد أقام ابن عمر رضي الله عنهما على حفظ سورة البقرة عدَّة سنين، قيل: ثماني سنين كما ذكره مالك في الموطأ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " وإنما ذلك لأجل الفهم والمعرفة".

السبب الثاني: المذاكرة.

من أسباب تحصيل العلم وتثبيته: مذاكرته، وتكون بحفظه، وبفقه معناه وبتدارسه مع غيرك.

والآثار الواردة عن السلف في الحثِّ على مذاكرة العلم كثيرة، منها:
ما جاء عن علقمة رحمه الله أنه قال: "تَذَاكَرُوا الْحَدِيثَ فَإِنَّ حَيَاتَهُ ذِكْرُهُ" أخرجه الدارمي والخطيب في الجامع، فإحياءُ العلم وبقاؤه يكون بمذاكرته حتى لايُنسى.

قال عبد الله بن المعتز رحمه الله: " من أكثر مذاكرة العلماء لم ينسى ما علم، واستفاد ما لم يعلم".

وقال النخعي رَحِمَهُ اللهُ: " من سرَّه أن يحفظ الحديث فليُحدِّث به، ولو أن يُحدِّث به من لا يشتهيه".

فتذاكر العلم وإن كنت في مجالس العوام ومن لا يرغب في العلم لتستفيد مذاكرة علمك، وربما كان فعلك سببًا في ترغيب الناس في العلم الشرعي، وطرحهم لمسائل يجهلونها.

وروى ابن أبي خيثمة في كتابه العلم بسنده عَنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ رَجَاءٍ، قَالَ: "كُنَّا نَجْمَعُ الصِّبْيَانَ فَنُحَدِّثُهُمْ"، وهذا يشمل تحفيظهم العلم حتى ولو لم يعقلوه.

وقوله: فَنُحَدِّثُهُمْ": أي: على قدر عقولهم.

وهذا فيه الحث على مذاكرة العلم حتى مع الصبيان مع عدم عنايتهم بالعلم، وكل هذا من شدة الحرص على المذاكرة.

وهذه الطريقة: مناسبة لغير المتمكن في الحفظ والضبط، فإنه قد يستفيد منها مع الصغار.

وفي الأثر عدم الأنفة في تحديث الصغار، فالصغار فيهم من يعقل العلم إذا حُدِّث على قدر عقله.

فمحمود بن الربيع رضي الله عنه عقل من النبي ﷺ مجَّة مجَّها في وجهه وهو ابن خمس سنين من دلو، كما في البخاري، وهذا فيه صحة سماع الصبي إذا كان عاقلًا لما يسمع، أما التحديث فيكون بعد البلوغ.

فالصغار لا يُحتقرون، لكن يُطرح عليهم العلم على قدر عقولهم.

ومن فوائد تلقينهم: تثبيت العلم في ذهن المعلِّم.

وجاء عند ابن أبي خيثمة في كتاب العلم قال فُضيل بن غزوان الراوي: "كُنَّا نَجْلِسُ أَنَا: وهو فُضيل، وَابْنُ شُبْرُمَةَ: وهو القاضي المعروف عبد الله بن شبرمة، وَالْحَارِثُ: ابن يزيد، وَالْمُغِيرَةُ: ابن مقسم الظبي، وهؤلاء كلهم فقهاء، وَالْقَعْقَاعُ بْنُ يَزِيدَ: وهو ابن شبرمة الظبي وهو ثقة وله رواية في الكتب الستة، وكانوا يجلسون بالليل بعد صلاة العشاء، قال: (نَتَذَاكَرُ الْفِقْهَ، فَرُبَّمَا لَمْ نَقُمْ حَتَّى نَسْمَعُ النِّدَاءَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ): وهذا الأثر فيه الترخيص بالسهر في الليل لمصلحة، ومن المصلحة مدارسة العلم لكن بشرط، أن لا يكون هذا السهر سببًا في التخلف عن صلاة الفجر جماعة.

وهذا الأثر فيه تنبيه إلى أن نافلة العلم خير من نافلة العبادة القاصرة، فكانوا يسهرون الليل كاملًا في المذاكرة، ولم يذكر أنهم كانوا يقومون الليل، لأن قيام الليل نفعه قاصر، ومذاكرة العلم نفعها متعدٍ، والعمل المتعدي أفضل من العمل القاصر.

وفي الجامع للخطيب البغدادي عَنْ عَلْقَمَةَ، قَالَ: "اطيلُوا ذكر الْحَدِيثِ، لَا يَدْرَسْ"، يعني: استمروا في الطلب، ولازموا مذاكرة الحديث وكرّروه وأعيدوا النظر في مراجعته وحفظه ومدارسته، حتى لا يُنسى ويُمحى ويبلى، فإذا لم يُراجِعِ الطالبُ العلمَ ولم يذاكرْهُ فإنه يذهب.

فعلى طالب العلم أن يعتني بمذاكرة العلم مع نفسه ومع أقرانه الناصحين الجادين، والصوارفُ عن العلم كثيرة، فيحتاج طالب العلم إلى مذاكرة العلم بين الفينة والأخرى، وإلى العناية بتدريس العلم، فهذا من أعظم أسباب زيادته.

فاحرص يا طالب العلم على مذاكرة العلم إنْ رمت الرسوخ فيه والازدياد منه فحياة العلم في مذاكرته، والرسوخ فيه، واحرص على مجالسة من يعينك على مذاكرة العلم، واصبر نفسك على ذلك، فقد قال الله تعالى: (وَاصْبِرْ

نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [الكهف: ٢٨].

السبب الثالث: الدَّرس.

والدرس من معانيه اللغوية المتعلِّقة بالعلم: القراءة.

والقراءة من أعظم ما يحصل به نماء العلم، فاجتهد في مراجعة دروسك مع نفسك ومع غيرك، وأكثر من الاطِّلاع في بطون الكتب.

ولا بدَّ للقارئ في كتب العلم أن يعتني بلزوم المنهجية العلمية في القراءة، فيُحسِنُ اختيار الكتاب المقروء، ولا يقرأ إلا ما في قراءته نفع، ويقرأ ما يُناسب علميَّته حتى يفهم ما يقرأ، ويعرف مناهج المصنفين في تأليف كتبهم ويعرف مصطلحاتهم في مصنفاتهم وهذا يظهر كثيرًا في مقدِّمات الكتب، ويختار الوقت والمكان المناسبين للقراءة، ويلخِّص ما قرأ ويدوِّن الفوائد على غلاف الكتاب المقروء وفي حواشيه، ويحدِّث الآخرين بما قرأ، ويتدرج في القراءة، وينوِّع الكتب المقروءة، ويتعرف على هِمَّةِ السلف في القراءة حتى تتشوق النفوس للقراءة ويحصل التأسي بأفذاذ العلماء الذين ما نالوا هذه المراتب السنية والمنازل العليَّة إلا بالبذل في طريق الطلب، غفر الله لهم ورزقنا السير على منوالهم.

قال الذهبي رحمه الله مخبرًا عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " وَلِفَرَطِ إِمَامَته فِي التَّفْسِير وعظمة اطِّلَاعه يبين خطأ كثير من أَقْوَال الْمُفَسّرين ويوهي أقوالًا عديدة وينصر قولًا وَاحِدًا مُوَافقًا لما دلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآن والْحَدِيث".

ومما يدل على سعة قراءة ابن تيمية رحمه الله في كتب التفسير قوله عن نفسه: "وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة وما رووه من الحديث، ووقفت من ذلك على ما شاء الله من الكتب الكبار والصغار، أكثر من مائة تفسير".

وقال الصفدي رحمه الله: " حكى لي من سمعه يقول: إني وقفت على مائة وعشرين تفسيرًا أستحضرُ من الجميع الصحيح الذي فيها".

وقال السخاوي رحمه الله في ترجمة محمد بن أحمد الصَّغَانِي رحمه الله: "كان إمامًا علاَّمةً متقدِّمًا في الفقه والأصْلَين والعربية مشاركًا في فنونٍ، حسن التقييد، عظيم الرغبة في المطالعة والانتقاء، بحيث بلغني عن أبي الخير بن عبد القوي أنه قال: أعرفه أزيد من خمسين سنة، وما دخلت إليه قط إلا ووجدته يطالع أو يكتب".

وقال ابن الجوزي رحمه الله مخبرًا عن نفسه حال المطالعة والإكثار منها: " وإني أخْبِر عن حالي ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره، فكأني وقعت على كنزٍ ...ولو قلت إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعد في الطلب".

والنماذج في هذا الباب كثيرة.

فتشـــبَّهوا إنْ لم تكونوا مثلَهم   إنَّ التشـــبـــه بالكرام فلاح

السبب الرابع: الفِكْرة.

فإعمال الفكر فيما ينفع ويقرب إلى الله تعالى، ومنه التفكر في مسائل العلم الشرعي من أهم المطالب الدينية.

والفكرة بابُ العلم، وهي: ما يمرُّ بطالب العلم من تردادٍ للمسائل العلمية في ذهنه فيصل بذلك إلى إدراك مسائل العلم وفهمها، وحسن تصوُّرها، وإلى استنباط مسائل جديدة قد تخفى على من لم يعتن بالتفكُّر في مسائل العلم.

ومن صور التفكُّر في مسائل العلم: التفكُّر في حجج القرآن وآياته وأحكامه الشرعية، والتفكُّر في أمثاله التي ضربها الله لعباده ليتفكروا فيها، كما قال الله تعالى: (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (أي: تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني وتنزلونها على المعنى المراد منها).

السبب الخامس: المناظرة.

والمناظرة النافعة في باب العلم هي ما كانت بين طرفين حاضريْن، وكانت

مبنيَّة على أسس علمية، وكان الهدف منها إظهارَ الحق والصواب.

وهذا النوع فيه مصلحة، فهو من أسباب تحصيل العلم وتثبيته.

وعلى طالب العلم أن يتجنَّب المُنَازَعَةَ فِي الْمَسَائِل الْعِلْمِيَّةِ مَعَ عِلْمِه بِفَسَادِ كَلاَمِهِ وَصِحَّةِ كَلاَمِ خَصْمِهِ.

وإذا جاء أحدٌ يريد المناظرة على الباطل، وطلبَ الغلبة على خصمه فإنه لا يناظَر.

قال ابن بطة رحمه الله:(سمعتُ بعض شيوخنا يقول: المجالسة للمناصحة فتح باب الفائدة، والمجالسة للمناظرة غلق باب الفائدة).

فالمناظرات التي لا زمام لها ولا خطام ولا ضوابط، تؤول إلى مقاصد سيئة منها إرادة كل شخصٍ التغلب على الآخر لا الوصول إلى الحق، فثمرة هذه المناظرة غير موجودة.

والمناظرة بالباطل فيها مساوئ منها:

حصول المراء المذموم، والجدال بالباطل، والمغالبة، والخصومة، والغضب، وفيها الصدُّ عن طريق الحق، وتوريثُ الشك، وربما أورثت ما هو أعظم من الشك، فهي تزيح الإنسان عن الجادة.

۞۞۞۞۞

قال الناظم رحمه الله:

فَرُبَّ إِنْسَـــانٍ يَنَالُ الْحِفْظَا وَيُورِدُ النَّصَّ وَيَحْكِي اللَّفْظَـا
وَمَـا لَـهُ فِي غَيْرِهِ نَصِــيـبُ مِمَّـا حَـوَاهُ الْـعَـالِمُ الْأَدِيـبُ

الشرح:

الناس في باب حفظ العلم وفهمه ينقسمون إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: أهل الحفظ للعلم، والفهم له، وهؤلاء هم العلمَاء بِالْحَدِيثِ وَالْفِقْه، فَإِنَّهُم حفظوا الْمَنْقُول واستنبطوا، فَعمَّ نفعهم.

القسم الثاني: مَنْ أوتي الحفظ، وحُرِمَ الفهم.

وهم الذين ذكرهم الناظم في هذين البيتين، وهم مَنْ نقل الحَدِيث فهو يُحْضِرُ، ويجلِبُ النصَّ المحفوظ، ويورد ما نطقَ وتكلَّم به المتكلِّم أو كتبه الكاتب على حسب ما أورده في لفظه أو كلامه على التَّمام، فَهُوَ يحفظ الْأَلْفَاظ وينقلها إِلَى من ينْتَفع بهَا، وما له في باب الفهم والاستنباط من حظٍّ ولا نصيب، فحظُّه في الحفظ لا غير؛ لأنَّ الفهم يحويه ويضمُّه العالم الأديب دون غيره.

والعالِمُ الأديب: يطلَقُ على مَنْ عنده اطِّلاعٌ واسع على العلوم الشرعية، مع حُسنْ فهمها، وضبطِ ما يُعين على فهمها من علوم الآلة، مع معرفة للحق بدليله، واتِّصافه بالملَكَةِ التي يَقْتَدِرُ بها على تأليف كلامٍ بليغ في أيِّ غَرَضٍ كان.

القسم الثالث: مَنْ حُرِمَ الحفظ والفهم، ولم يتَعَلَّق بِشَيْء من العلم.

وهذه الأقسام الثلاثة: دلَّ عليها حديث أَبِي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مثَلُ ما بعثَني اللهُ بِهِ من الهدَى والْعِلم؛ كمثَلِ الْغَيثِ الكثيرِ، أَصابَ أرضًا، فكانَ منْها نقيَّةٌ قَبِلَتِ الماءَ، فأَنبتتِ الكَلأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكانَت منها أَجادِبُ أَمسكَتِ الماءَ، فنفَعَ اللهُ بها الناسَ فشَربوا وسَقَوْا وزرعوا، وأَصابَ منها طائفةً أُخرى إِنما هيَ قِيعانٌ، لا تمسِكُ ماءً، ولَا تُنبِتُ كَلأً،

فذلكَ مثَلُ مَن فَقُهَ في دينِ اللهِ ونَفَعَهُ ما بعثَني اللهُ بهِ، فعَلِمَ وعلَّمَ، ومثَلُ مَن لم يَرفعْ بذلكَ رأْسًا، ولم يَقبَلْ هُدَى اللهِ الذي أُرسِلتُ بهِ) رواه البخاري ومسلم.

فالطائفة الأولى: هم العلمَاء بِالْحَدِيثِ وَالْفِقْه الذين جمعوا بين الحفظ والاستنباط والفهم، فهؤلاء بمنزلة الأرض التي قبِلت الماء، وهذا بمنزلة الحفظ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط، فإنه بمنزلة إنبات الكلأ والعشب بالماء، فهذا مثَلُ الحفاظ الفقهاء، أهل الرواية والدراية.

والطائفة الثانية: هم الذين نقلوا العلم وَلم يفهموا مَعَانِيه، فَهُم يحفظون الْأَلْفَاظ ويضبطونها وينقلونها إِلَى من ينْتَفع بهَا، فهؤلاء بمنزلة الأرض التي أمسكت الماء للناس، فانتفعوا به، فهذا يشرب منه، وهذا يسقي وهذا يزرع.

فهاتان الطائفتان اشتركتا في العلم والتعليم كل بحسب ما قبِله، ووصل إليه، فهذا يَعْلَمُ ألفاظَ القرآن ويحفظها، وهذا يعلِّم معانيه وأحكامه وعلومه.

والطائفة الثالثة: وهم أشقى الخلق، الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسًا، فلا حِفْظَ، ولا فَهْمَ، ولا رواية، ولا دراية، ولا رعاية عندهم، فهم بمنزلة الأرض السَّبْخة المالحة، أو الملساء التي لا تقبل الماء، أو تفسده، وهم المشار إليهم بقوله: (وأَصابَ منها طائفةً أُخرى إنما هيَ قِيعانٌ، لا تمسِكُ ماءً، ولَا تُنبِتُ كَلأً)، فهؤلاء شرٌّ من الأنعام؛ لأنهم يكذبون بالخبر ويستكبرون عن الأمر.

القسم الرابع: مَنْ أوتي الفهم، وحُرِمَ الحفظ.

وفهم العلم دون حفظه يجعل صاحبه فقيهًا غير راسخ، فتضيع منه الاستدلالات ونصوص الكتاب والسنة.

والجمع بين الفهم والحفظ هو الكمال، بينما الفهم وحده دون حفظ يؤدي إلى ضعف في الحجة، والموفق من وفقه الله فكان فقيهًا حافظًا والله المستعان.

والوصية لأهل العلم أن يصبروا على طلابهم إذا وُجِدَ عندهم قصور في بعض مسائل العلم، ويجتهدوا في إفهامهم ما استطاعوا.

وقد ذكر القفَّال في فتَاوِيهِ أنَّ الرَّبيع بن سليمان كان بطئ الْفَهم فكرر الشافعي عَلَيْهِ مَسْأَلَة وَاحِدَة أَرْبَعِينَ مرّة فَلم يفهم وَقَامَ من الْمجْلس حَيَاء فَدَعَاهُ الشافعي فى خلْوَة وَكرر عَلَيْهِ حَتَّى فهم.

۞۞۞۞۞

قال الناظم رحمه الله:

وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَـدِيدِ الْحُبِّ ... لِلْعِلْمِ وَالـذِّكْرِ بَلِيـدُ الْقَلْـبِ
مُعَجَّزٌ فِي الْحِفْظِ وَالرِّوَايَـةِ ... لَيْسَـــتْ لَهُ عَمَّنْ رَوَى حِكَايَةٌ
وَآخَرٌ يُـعْطَى بِلَا اجْتِهَـادِ ... حِفْظًا لِمَا قَدْ جَاءَ فِي الْإِسْـنَادِ
يَـهُذُّهُ بِالْقَلْـبِ لَا بِنَـاظِرِهِ ... لَيْسَ بِمُضْـــطَرٍّ إِلَى قَمَـاطِرِهِ

الشرح:

قال: (**وربَّ**) وهي هنا: للتقليل، (**ذي حرصٍ شديدِ الحبِّ للعلم والذكر**)، والمعنى: أنه صاحبُ حرصٍ على تحصيلِ العلم ومباشرته، فنفسهُ تميل إلى الخير، فهو ملازمٌ لمجالس العلم التي يكون فيها التفقُّه في دين الله تعالى مع اجتنابٍ للعلم الذي فيه ضرر، وللعلمِ الذي لا نفع فيه، وهو ملازم لذكر الله تعالى بالمعنى العام، فذكرُ الله تعالى يُطلقُ ويراد به: المواظبةُ على العمل بما أوجبه الشرعُ، كالأذكار الواجبة في الصلاة، ويطلق ويراد به: المواظبةُ على العمل الذي نَدَبَ إليه الشرعُ، كتلاوة القرآن، ومذاكرة الحديث، ومدارسة العلم، ومع ذلك فهو: (**بليدُ القلب**)، أي: ضعيف الذكاء والحفظ، وثقيل الفهم، وهو أيضًا: (**مُعَجَّزٌ فِي الْحِفْظِ وَالرِّوَايَةِ**).

والعجز هو: القعود عن غاية المطلوب، فهو غير قادر على الحفظ بسبب ضعفه، أو كسله وتوانيه، وضعيفٌ في الرواية، وهي: نقل السنَّة ونَحْوِها، وإسنادُ ذلك إلى مَنْ عُزِيَ إليه بتحديثٍ أو إخبار أو غَيْرِ ذلك، وأيضًا (**لَيْسَتْ لَهُ عَمَّنْ رَوَى حِكَايَةٌ**)، أي: ليست له روايةٌ وحكاية للأسانيد، فأصحاب هذا القسم أهلُ محبَّة للعلم وأهله لكن لا يدرجوا في مصافِّ أهل العلم، ويُرجى أن يُكتَبَ لهم أجرُ الحرص على الخير، وحضورِ مجالس العلم، وعليهم أن يبذلوا أسباب تحصيل العلم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ثم ذكر الناظم رحمه الله أنَّ بعض الناس عنده حُسْنِ فهمٍ مع قوة حافظة.
فيحفظ الإسناد دون بذل جَهْد ومشقة.

والإسناد: حكاية طريق المتن، **أو**: رفع الحديث إلى قائله.

فهو يهذُّ الإسناد هذًّا سريعًا، بقوَّة قلبه، مع حسن فهمٍ للمحفوظ، وهذُّهُ ليس بعينيه الناظرتين بل هو عن ظهرِ قلبٍ فهو غير مُضْطَرٍّ، أي: غير محتاج إِلَى مراجعة قَمَاطِرِهِ، **والقماطرُ**: جمعُ قِمَطْر بكسر القاف وفتح الميم وسكون الطاء أعجميٌّ معرَّب، وهو ما تُصَانُ فيه الكتب من وعاء، ومثله في زماننا الكمبيوتر ونحوه.

هذه أقسام الناس باعتبار حفظ العلم وفهمه، فإن أردتَ تمام الانتفاع بالعلم فعليك أن تجمع بين ثلاثة أمور:

الحفظ للعلم، والدراية، وهو فقه السنَّة، وحسن الاتِّبَاع، وهو العملُ بالكتاب العزيز، والاقتداءُ بالنبي ﷺ واقتفاءُ آثاره والتأسي به، وبهذه الأمور يتميز طالبُ العلم عن أهل الأهواء في منهج التلقي والاستدلال والعمل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وَنَحْنُ لَا نَعْنِي بِأَهْلِ الحَدِيثِ: المقْتَصِرِينَ عَلَى سَمَاعِهِ، أَو كِتَابَتِهِ، أَو رِوَايَتِهِ، بَلْ نَعْنِي بِهِمْ: كُلَّ مَنْ كَانَ أَحَقَّ بِحِفْظِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ، وَفَهْمِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَاتِّبَاعِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَكَذَلِكَ أَهْلُ القُرْآنِ).

۞۞۞۞۞

قال الناظم رحمه الله:

فَالْتَمِسِ الْعِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ وَالْعِلْمُ لَا يَحْسُـــنُ إِلَّا بِالْأَدَبِ

الشرح:

الالتماس: الطلب برفق، والمعنى: اطلب العلم فإنه يؤتَى ولا يأتي، (**وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ**)، أي: أحسن واعتدل في طلب العلم الشرعي وادخل أبواب العلم برفق ولين، ولا تتشدَّد في طلبه، ولا تبالغ بالإفراط فيه، فالعلم كما قيل: أودية مهما أخذت منه لن تُنقصه.

فاعمل بوصية ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال: "وخير العلم ما نفع" رواه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق وغيرهما.

فاطلب العلم الذي يترتَّب عليه عمل، واعتن بتعلُّم ما فيه نفع، وخذ العلم مع الليالي والأيام، والزم المنهجية العلمية في طلب العلم، ومن ذلك دراسة المختصرات العلمية والبدء بها في كلِّ فنٍّ، ثم لك بعد ذلك أنْ تتخصص في الفنِّ الذي ترى أنك تنتفع به، أو تميل نفسك إليه.

(**وَالْعِلْمُ لَا يَحْسُنُ**)، أي: لا يجمُلُ (**إِلَّا بِالْأَدَبِ**)، وهو: اجْتِمَاعُ خِصَالِ الْخَيْرِ فِي الْعَبْدِ.

وحُسْنُ الْأَدَبِ فِي الظَّاهِرِ عُنْوَانُ حُسْنِ الْأَدَبِ فِي الْبَاطِنِ.

قال ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين: (وأدبُ المرء: عنوانُ سعادته وفلاحه، وقلّةُ أدبه: عنوانُ شقاوته وبَوارِه، فما استُجْلِب خيرُ الدُّنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استُجْلِب حرمانُهما بمثل قلَّة الأدب).

فالمرءُ قد يُحرم العلم بسبب عدم تأدبه بآداب طلب العلم.

ومما يدل على أهمية التزام طالب العلم بالآداب أمور إليك ذكر شيء منها:

أولًا: تحلي طالب العلم بالأدب مع مشايخه وأقرانه وزملائه من أسباب تحصيله للعلم، فالمعلم يجل الطالب المؤدب ويوليه غاية العناية في النفع ويسعى

في إيصال الخير إليه بكل سبيل ممكنة متى ما رآه يحسن السؤال، فيعرف كيف يسأل ومتى يسأل وفي أي وقت يسأل فهذا يجعله محبوبًا عند المعلم فيوليه غاية العناية في الإجابة.

وإذا كان طالبُ العلم سيءَ خُلق ربما كان ذلك سببًا في صدِّ أهل العلم عنه فتجده لا يعرف كيف يسأل، وتراه يقاطع الدرس، ويكثر الحركة فيه، ويشوِّش على الحاضرين، فهذا قد يُحرم بركة العلم.

ثانيًا: مما يدل على أهمية التزام طالب العلم بآداب الطلب:

أنَّ طالب العلم محلُّ نظر الناس عامَّة إليه، ومحلُّ نظر طلبة العلم خاصَّة إليه، فالناس يراقبون أفعاله وتصرفاته بل ربما يحاكونه أحيانًا وهو لايشعر فينظرون كيف يصلي فيتأسون به فالتزامه بالأدب له أثر عظيم في غيره.

ولهذا قال ابن وهب المالكي رَحِمَهُ اللهُ: (ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه).

وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ يجتمع في مجلسه خمسة آلاف أو يزيدون، نحوُ خمسمائة يكتبون عنه العلم والباقون يتعلمون منه حسن الأدب والسمت.

ثالثًا: التزام طالب العلم بالآداب سبب لفهم العلم وضبطه.

مثال ذلك: الإنصات للدرس وعدم الشرود عنه، وعدم التفكير في المسألة التي لم يفهمها الطالب في أثناء الدرس سبب لفهم الدرس.

فينبغي لطالب العلم إذا استشكل مسألة أو طُرحت مسألة لم يفهمها أن يضع خطًا تحتها أو يشير إليها إشارة مباشرة ويرجع إلى درسه ولا يلتفت إلى ما أشكل عليه في أثناء درسه، فإذا استرسل في التفكير فإنه قد تطرح مسألة ولما يزل يفكِّر في تلك المسألة التي لم يفهمها فيفوته ما طُرِح بعد هذه المسألة.

مثال آخر: أحيانًا تتقرر في ذهن طالب العلم مسألة، فيسمع تقريرًا مخالفًا لما تقرر في ذهنه من المعلِّم، وقد تكون هذه المسألة من مسائل الاجتهاد التي لها حظٌّ من النظر، فتجده يفكِّر في كيفية الاعتراض على المعلِّم بعد

الدرس، وهذا يشغله عن العلم الذي يطرح أثناء تفكيره، فانظروا إلى أثر التزام الأدب في أثناء الدرس وعلاقته بفهم العلم وضبطه.

ولهذا قال يوسف بن الحسين: (بالأدب نتفهم العلم).

رابعًا: التزام طالب العلم بالأدب مَظِنَّةٌ لمحبة الناس له وثقتهم بما يقول فيطمئنون لكلامه؛ لأنهم يرون عليه آثار العلم وآثار التدين وآثار التمسك وحسن الخلق فيطمئنون لما يقول ويكونون قريبين منه فيسألونه عما أشكل عليهم ويكون هو أيضًا قريبًا منهم إذا رأى إقبالهم على السؤال عما ينفع.

خامسًا: الالتزام بالآداب يجعل طالب العلم يحسن التعامل مع مشايخه وأقرانه وأهل بيته وأسرته، فيكون لهذا أثر في قبول الحق منه، وأما إذا كان فظًا غليظ القلب فإنه سيكون سببًا في صد الناس عما ينفعهم في دينهم.

سادسًا: عدم التزام طالب العلم بآداب طلب العلم ووقوعه في مساوئ الأخلاق كحسد الأقران والغيبة والنميمة والكذب والتسلط على عباد الله وحب الرئاسة والعلو والكبر والعجب والحزبيات المقيتة، فهذه كلها معاصٍ، والمعاصي مِنْ شؤمها أنها سبب في حرمان العلم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في الجواب الكافي: (فإنَّ العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تُطفئ ذلك النور).

إذا علمنا أهمية التزام طالب العلم بآداب طلب العلم فهناك طرق لاكتساب هذه الآداب من أهمها ما يلي:

أولًا: سؤال الله عَزَّ وَجلَّ أن يرزقك حسن الأدب وأن يعيذك من مساوئ الأخلاق، وقد كان من دعاء النبي ﷺ قوله: (**اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ**) رواه مسلم.

ومعنى: لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، أي: لأكملها.

وكان من دعائه عَليهِ الصَّلَاةُ والسَّلَاَم كما جاء عند الترمذي والحاكم واللفظ له بسند حسن قوله: (**اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ،**

وَالْأَهْوَاءِ، وَالْأَدْوَاءِ).

فعلى الإنسان أن يلجأ إلى الله دائمًا أن يعافيه من كلِّ بلاء ومن كلِّ ما يحول بينه وبين طلب العلم الشرعي.

ثانيًا: التعويد والممارسة ومجاهدة النفس على التخلق بالآداب الإسلامية والأخلاق الحسنة.

وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: (**إنما العلم بالتعلم وإنما الحِلْمُ بالتحلُّمِ ومَنْ يتحرَّ الخيرَ يعطَهُ ومَنْ يتوقَّ الشَّرَّ يوقَهُ)** رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد وحسنه بطرقه الألباني، وصححَّ إسناده موقوفًا عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

فالنَّفس تحتاج إلى مجاهدةٍ على التخلُّقِ بالآداب كما دلَّ عليه هذا الحديث فالحلم لا يحصل إلا ببسط النفس وحثِّها عليه ومجاهدتها على الاتصاف به، وهكذا بقيَّةُ الأخلاق.

وقد يحتاجُ المرءُ إلى طول زمانٍ في مجاهدة نفسه حتى تستقيم أخلاقُه.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ المُنْكَدِرِ رَحِمَهُ اللهُ: (كَابَدْتُ نَفْسِي أَرْبَعِينَ سَنَةً؛ حَتَّ اسْتَقَامَتْ).

ثالثًا: مجالسة أهل الآداب الفاضلة.

وقد جاء في الحديث أنَّ النبي ﷺ قال: (**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ)** رواه أبو داود والترمذي وحسنة الألباني.

فالإنسان يكون في أخلاقه على حسب مَنْ يصاحبه، فإنْ صاحَبَ أهلَ الخير؛ صارَ منهم، وإنْ صاحَبَ سواهم؛ صارَ مثلَهم.

والنظر إلى سَمْتِ أصحاب الأخلاق الفاضلة وأدبهم وأخلاقهم مما يعين على الاقتداء بهم في حسن الخلق، والانتفاع بالعلم، ولذا كان بعض السلف يذهبون إلى مجالس أهل العلم ليهذِّبوا من أخلاقهم وسلوكهم.

قال سليمان بن مهران الأعمش رحمه الله: (كانوا يأتون همَّام بن الحارث

يتعلَّمون من هديه وسمته).

رابعًا: من طرق اكتساب الآداب: قراءة سير العلماء وتراجمهم.

فالعلماء ألفوا مصنفات كثيرة في السير ومن أجلِّها كتاب سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ.

وأُلِّفتْ كتب الطبقات في تراجم أتباع المذاهب الأربعة، وكتب الرجال، فالذي يقرأ في هذه الكتب ستتقوى عزيمته في طلب العلم؛ لأنه سيقرأ في سير العلماء المبرَّزين الذين فاقوا غيرهم في العلم والفضل من جهة نشأتهم العلمية وحفظهم للقرآن وعنايتهم بالآداب وكيف كانوا يدرسون وكيف كانوا يصبرون على الأذى فلن تعدم خيرًا من قراءة هذه الكتب التي تعينك على سلوك شيءٍ من آثارهم.

فتشــبهوا إن لم تكونوا مثلهم إنَّ التشـــبُّـه بالكرام فلاح

خامسًا: محاسبة النفس على تقصيرها في حسن الأدب أو ارتكابها لمساوئ الأخلاق.

وقد قيل: (لا يكون الرجل تقيًّا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه).

سادسًا: النظر في نصوص الكتاب والسنة وفي آثار حسن الخلق وفي عواقب سوء الخلق، فالذي ينظر في هذه النصوص ويوفقه الله جَلَّ وَعلا للعمل بها سيُهدَى لأحسن الأخلاق، ويدَعُ سيِّئها.

سابعًا: قراءة كتب آداب طلب العلم، وما صُنِّف في الأخلاق وتهذيب النفوس.

وقد سبقت الإشارة إلى أهم الكتب العامَّة المصنَّفة في آداب طلب العلم.

وأما كتب الآداب المفردة التي اعتنت ببيان ما يتعلَّق بالأخلاق وتهذيب النفوس فهي كثيرة منها:

كتاب الشمائل المحمدية للإمام الترمذي، وأدب الدنيا والدين للماوردي، والآداب الشرعية لابن مفلح، وغذاء الألباب بشرح منظومة الآداب للسفاريني، والأدب المفرد للبخاري، والآداب للبيهقي، ومكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا، ومكارم الأخلاق للطبراني، ومكارم الأخلاق للخرائطي، وكتاب مساوئ الأخلاق للخرائطي، وكتاب التوبيخ والتنبيه لأبي الشيخ الأصبهاني، وكتب ابن أبي الدنيا المسندة، مثل: كتاب الصمت وذم البغي وذم الكذب وذم الغضب والتواضع، والخمول، والصبر، والحلم، وغيرها، وهي نافعة مع الانتباه لما فيها مما لا يصحُّ.

۞۞۞۞۞

قال الناظم رحمه الله:

وَالْأَدَبُ النَّافِعُ حُسْنُ السَّمْتِ	**وَفِي كَثِيرِ الْقَوْلِ بَعْضُ الْمَقْتِ**
فَكُنْ لِحُسْنِ السَّمْتِ مَا حَيِيتَا	**مُقَارِفًا تُحْمَدُ مَا بَقِيتَا**

الشرح:

لما نبَّه الناظم رحمه الله إلى أهمية لزوم الأدب الذي هو جمال العلم على سبيل العموم أشار في هذين البيتين إلى نوعٍ من أنواع الأدب النافع لصاحبه ولغيره، الذي تندرج تحته آداب كثيرةٌ وهو: حسن السَّمت، ونصَّ عليه؛ لعظيم أثره، فقد يحرم العبد ثمرة العلم الشرعي بسبب إخلاله بهذا الخُلُقِ.

وحُسْنُ السَّمْتِ له معنيان صحيحان:

الأول: أن يكون للمرء هيئة أهل الخير ومنظرهم.

والمعنى الآخر: التزام طريقة أهل الإسلام وهيئتهم، ويكون باتِّباع الحقِّ والهدى، بحيث يستطيع من يراه أو يسمعه أن ينسبه لأهل الخير والصَّلاح والدِّيانة والفلاح بسبب ظهور أثر العلم عليه.

والسَّمتُ الصالح مِنْ شَمَائِلِ الْأَنْبِيَاءِ وَمِنْ جُمْلَةِ خِصَالِهِمْ.

فقد جاء في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الهَدْيَ الصَّالِحَ، والسَّمْتَ الصَّالِحَ، والاقتصادَ جزءٌ من خمسةٍ وعشرين جُزءًا من النُّبوَّة) رواه أبو داود، وحسّنه الألباني.

ومن صور حسن السمت ما نبَّه عليه الخطيب البغدادي رحمه الله بقوله: (يَجِبُ عَلَى طَالِبِ الْحَدِيثِ أَنْ يَتَجَنَّبَ اللَّعِبَ وَالْعَبَثَ وَالتَّبَذُّلَ فِي الْمَجَالِسِ بِالسُّخْفِ، وَالضَّحِكِ، وَالْقَهْقَهَةِ، وَكَثْرَةِ التَّنَادُرِ، وَإِدْمَانِ الْمِزَاحِ وَالْإِكْثَارِ مِنْهُ، فَإِنَّمَا يُسْتَجَازُ مِنَ الْمِزَاحِ يَسِيرُهُ وَنَادِرُهُ وَطَرِيفُهُ الَّذِي لَا يَخْرُجُ عَنْ حَدِّ الْأَدَبِ وَطَرِيقَةِ العِلْمِ، فَأَمَّا مُتَّصِلُهُ وَفَاحِشُهُ وَسَخِيفُهُ وَمَا أَوْغَرَ مِنْهُ الصُّدُورَ وَجَلَبَ الشَّرَّ؛ فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ وَكَثْرَةُ الْمِزَاحِ وَالضَّحِكِ يَضَعُ مِنَ الْقَدْرِ، وَيُزِيلُ الْمُرُوءَةَ).

ومن ثمرات حسن السَّمت: حصول الهيبة في قلوب الناس، فإذا احتاج صاحب السَّمت إلى الكلام كان لكلامه وقع في نفوس الناس، لمعرفتهم أنه لا يتكلم إلا لحاجة، بخلاف غيره ممن يُكثر الكلام بلا مصلحة، فهؤلاء يُخشى عليهم من ذهاب الهيبة في قلوب الناس لهم.

والذي لا يضبط لسانه، يُخشى عليه من العجلة والخوض فيما لا يُحسن ومنه: الكلام في النوازل، والتقدَّم بين يدي الأكابر، والتعامل السيء مع الناس، وكلُّ هذا له آثاره السيئة على صاحبه.

وقوله: (**وَفِي كَثِيرِ الْقَوْلِ بَعْضُ الْمَقْتِ**) المراد: أنَّ كثرة الكلام الذي لا علم فيه ولا أدب قد تورِّثُ المقتَ وهو شدَّة البغضاء لصاحبها؛ لأنَّ مَنْ كثر كلامه بلا فائدة كثُر غلطه وتعدِّيه على الناس في الغالب، فيُوجِب ذلك شدَّة بغض الناس له.

ومن مساوئ كثرة الكلام بلا فائدة، والتطاولِ على الناس في الكلام والبذاءة عليهم:

أنَّ أصحاب هذه الصفة أبغض الناس إلى النبي ﷺ، وأبعدهم منه مجلسًا يوم القيامة، كما دلَّ على ذلك حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (وإنَّ مِن أبغضِكُم إليَّ وأبعدِكُم منِّي يومَ القيامةِ الثَّرثارونَ والمتشدِّقونَ والمتفَيهِقونَ، قالوا: يا رسولَ اللَّهِ، قد علِمنا الثَّرثارينَ والمتشدِّقينَ فما المتفيهقونَ؟ قالَ: المتَكبِّرونَ) رواه الترمذي.

والثرثارون: هم كثيروا الكلام تكلُّفًا؛ والمتشدِّقون: الْمُتَوَسِّعُونَ فِي الْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ اِحْتِيَاطٍ وَاحْتِرَازٍ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْمُتَشَدِّقِين: الْمُسْتَهْزِئين بِالنَّاسِ الذين يَلْوون شِدْقَهُم بِهِمْ وَعَلَيْهِمْ، وَالشِّدْقُ: جَانِبُ الْفَمِ.

فيجب الصمت عن كلِّ كلام نهتْ عنه الشريعة، فالقاعدة العامة في باب النواهي وجوب الكفِّ عنها، ومما يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: "دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم

بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" رواه البخاري ومسلم.

ويجب الصمت عن الكلام المباح الذي يؤدِّي إلى الكلام بباطل.

ومن القواعد الفقهية المقرَّرة: أنَّ (الوسائل تعطى أحكامَ المقاصد)، وهذه القاعدة تبيِّن أنَّ هذا المباح إذا أدَّى فِعْلُهُ إلى أمرٍ من الأمور المحرَّمة فإنه يكون ممنوعًا.

ويحرم الصمت إذا تعيَّن الكلام، ويتعين في تعليم الناس أمر دينهم، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما لم يكن في الإنكار باللسان مفسدة، ويتعيَّنُ الكلامُ في الاتيان بالأذكار الواجبة ونحو ذلك.

ومن وصايا السلف للطلاب في الحثِّ على حسن السمت، ومنه الحرص على الصمت في مجالس الأكابر:

ما رواه ابن أبي خيثمة رحمه الله بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "**إنِ اسْتَطَعْتَ**": والمخاطَب هم صغار الطلبة،" **أَنْ تَكُونَ أَنْتَ الْمُحَدَّثَ**": يعني: من غيرك، "**فَافْعَلْ**": أي: لا تحرص على أن تتكلم وأنت في حداثة سنك وفي بداية طلبك للعلم.

فصغار الطلبة عليهم السكوت والإنصات بحضرة الأكابر في العلم والسن، فهؤلاء لهم قدرهم فاسكت في مجالسهم، فالكلام بحضرتهم بلا مصلحة مدخل من مداخل الشيطان على العبد، وهو طريق إلى البحث عن الشهرة، التي هي باب من أبواب الرياء.

والسكوت قد تحتاج إليه في حضرة الأقران والزملاء، فالذي يسكت عند كفاية أخيه له خير من المتكلم، فسكوتك ليس لأجل كتمان العلم؛ بل لأنك كُفيت؛ ولأنَّ كلامك عند كفاية غيرك لك قد تحصل فيه إشكالات من اعتراضٍ على صاحبك، أو يأتي الشيطان وتتكلم فيما لم يتكلم به لإظهار نفسك، فهذا أدب دقيق جدًا يجب التفطُّنُ له.

ومما جاء في الحثِّ على الاستماع أكثر من الحرص على الكلام قول ابن حبَّان البستي رحمه الله في كتابه روضة العقلاء: " الواجب على العاقل أن يُنصف أذنيه من فيه، ويعلم أنه إنما جُعلت له أذنان وفم واحدٌ ليسمع أكثر مما يقول؛ لأنه إذا قال ربما ندم، وإن لم يقل لم يندم".

وقول ابن مسعود رضي الله عنه: "**إنِ اسْتَطَعْتَ**: هذا فيه تنبيه إلى أنَّ بعض المواطن لا يحسُن فيها السكوت، فأحيانًا يتعين الكلام عليك، فقد تكون في مجلس فيه طلاب علم، فتُطرح مسألة يخفى حكمها على الحاضرين من طلبة العلم، مع معرفتك بها فهنا يلزمك الكلام خوفًا من تبعة كتمان العلم.

وأحيانًا قد يسمع طالب العلم خطأً صِرفًا في مجلسٍ من المجالس، فيه طلاب عِلْمٍ لم ينبِّهوا على هذا الغلط، فلا يجوز له السكوت بل يلزمه البيان، فهذا من نفع الناس الذي يتعين عليه ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد روى وكيع بن الجراح رحمه الله في الزهد عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: (إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَجْلِسُ مَعَ الْقَوْمِ فَيَرَوْنَ أَنَّ بِهِ عِيًّا، وَمَا بِهِ مِنْ عِيٍّ، إِنَّهُ لَفَقِيهٌ مُسْلِمٌ).

والمعنى: أنَّ بعض طلبة العلم يحضرون مجالس العلم، فيلزمون الصمت حتى يظن الظانُّ أنَّهم جهلة أو لا يحسنون الكلام، وهم في الحقيقة ليسوا كذلك، بل هم فقهاء بما يُصلح نفوسهم ولو تكلم أحدهم لعُلِمَ أنه من أهل الفقه في الدين، لكنْ حمله على الصمت تقوى الله عَزَّ وَجلَّ والورع والفرار من الشهرة وحرصه على التواضع والإنصات للعلم والاشتغال عن ما لاينفع واحترام الأكابر، واحترام مجالس العلم والخوف من أن يخوض في مسائل لا يحسنها، فلذلك لزم الصمت.

قال الناظم رحمه الله:

فَكُنْ لِحُسْنِ السَّمْتِ مَا حَيِيتَا ... مُقَارِفًا تُحْمَدُ مَا بَقِيتَا

أي: لازم يا طالبَ العلم هذه الصفة الحميدة وهي حسن السمت والهيئة

والوقار والأدب النافع، واتَّصف بها مدَّة حياتك، فإنها عبادة، والعبادات لا تنقطع إلا بالموت.

وكنْ مُقَارِفًا لحسن السَّمتِ أي: مكتَسِبًا له.

ومن صور اكتسابه: مجالسة المتَّصفين بهذا الخلق، وتقدَّم أنَّ الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ كان يجتمع في مجلسه خمسة آلاف أو يزيدون، نحوُ خمسمائة يكتبون عنه العلم والباقون يتعلمون منه حسن الأدب والسَّمت.

ثم أشار إلى ثمرة يجنيها صاحِبُ السَّمت الحسن، وهي ثناء الناس عليه في حياته، وهي عاجل بشرى له، ففي حديث أبي ذر ﷺ قال: قيل لرسول الله ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: (تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ) رواه مسلم.

فالذي يعمل الخير ومنه: حُسْنُ السَّمت، ولا يريد بذلك إلا وجهَ الله تعالى، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يعطيه بعمله ثوابَ الدنيا، وهو حَمْدُ الناس له، وثوابَ الآخرة، وهو ما أَعَدَّ له من الأجر.

قال الناظم رحمه الله:

وَإِنْ بَدَتْ بَيْنَ الأنامِ مَسْــــأَلَةٌ   مَعْرُوفَــةٌ فِي العِلْمِ أَوْ مُفْتَعَلَــةٌ
فَلَا تَكُنْ إِلَى الجْوَابِ سَـــــابِقًا   حَتَّى تَرى غَيْرَكَ فِيهَــا نَاطِقَــا

الشرح:

هذان البيتان فيهما بيان الموقف من الجواب عن المسائل الشرعية، وهو عدم التسرُّع في الجواب عنها، وعدمُ الكلام في مسألة ليس لك فيها إمام.

قال الناظم رحمه الله: (وَإِنْ بَدَتْ)، أي: ظهَرَتْ، **(بَيْنَ الأنامِ)**، وهم الناس خاصَّة، وسُمُّوا أنامًا لما يعتريهم من النوم، **(مَسْأَلَةٌ)**: وهي القضية من قضايا العلم التي يُبرهنُ عليها، وسمِّيتْ بذلك؛ لأنه يُسألُ عنها، ويُبحَثُ فيها.

والمسائل التي تظهرُ بين الأنام على قسمين:

الأول: المسائل الشرعية التي هي: (مَعْرُوفَةٌ في العلم).

والمعنى: أنَّ هذه المسائل قد دلَّ عليها القرآن والسنة أو أحدهما، أو كان دليلها الإجماع أو القياس المعتبَر، أو دلَّ عليها دليل غيرُ متوَهَّمٍ، ومنه ما يذكره أهل العلم من أقاويل فسَّرت القرآن الكريم بالمأثور، أو فسَّرته بالرأي أو العقل الذي لا يخالف النقل، فهذا هو العلم الحقيقي الذي لا تجوز الحيدة عنه، ولا الجواب بخلافه.

الثاني: مسائل (مُفْتَعَلَةٌ)، أي: محدَثَةٌ ونازلة.

وهي: الوقائع والمسائل المستجدة، التي تستدعي اجتهادًا وبيانًا للحكم الشرعيِّ.

والموقفُ مِنَ المسائلِ المعروفةِ أو المفْتَعَلَةِ ثلاثةُ أمور:

الأول: أنْ لا تتسرَّع في الجواب عن مسألة لم تُسأل عنها، وعليك أنْ تكل الجواب إلى مَنْ هو أعلم منك.

والتسرُّع في الجواب عن ما لم يُسأل عنه طالب العلم آفة خطيرة، فبعض المنتسبين إلى العلم تجده يتصدَّر المجالس، وقد يكون في المجلس من هو أعلم

منه، فإذا وجَّه أحدُ الحاضرين سؤالًا بادر بالجواب عنه، وهذا مدخلٌ من مداخل الشيطان على العبد، وقد روى البيهقي بسندٍ حسنه الألباني عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (اتقوا هذه المذابح – يعني المحاريب –).

والمحاريب في هذا الحديث ليست هي المحاريب التي في المساجد، وإنما المراد بها: صدور المجالس.

قال ابن الأثير رحمه الله في النهاية: (المِحْرابُ: الموْضع العَالي المشْرِفُ، وهُو صَدْر المجْلس أيضًا، ومنه سُمِّي مِحْرابُ المسْجد، وهو صَدْرُه وأشْرَف مَوْضِع فيه، فهذا نهيٌ من النبي ﷺ عن التصدُّر في المجلس، لما يُخشى منه مِنْ حصول الرياء أو شيءٍ من العُجْبِ في صاحبه).

والناظر في هدي الصحابة رضي الله عنهم يجد أنهم مِنْ أبعد الناس عن التصدُّر للفتيا، بل كانوا يتدافعونها.

قال عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى رحمه الله: " أَدْرَكْتُ عِشْرِينَ وَمِائَةً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْأَنْصَارِ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ وَلَا يُحَدِّثُهُ حَدِيثًا إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ" أخرجه الآجري في أخلاق العلماء، والبيهقي في المدخل، وغيرهما.

ومما يُستفاد من هذا الأثر: أنه فيه تهيب الصحابة رَضِي اللهُ عَنْهُم وأرضاهم من الفُتيا؛ لخطورتها وهذا دليل على خشيتهم لله عَزَّ وَجلَّ وورعهم.

فالقول على الله بغير علم من أعلى مراتب المحرمات وأشدها تحريمًا، بل جعله بعض أهل العلم قرينًا للشرك بالله عَزَّ وَجلَّ، كما قال الله تعالى: (وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [الأعراف: ٣٣].

ثم إنهم يعرفون ما الذي يترتَّب على القول على الله بغير علم من مفاسد، وما يترتب عليه من الكذب على الله تعالى وعلى دينه وعلى رسوله ﷺ وتبديلِ

الشريعة، وما يترتب على القول على الله بغير علم من إضلال الناس وتحمل أوزارهم يوم القيامة، وأنه موجب لدخول النار كما جاء في الحديث: (**وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**) رواه البخاري ومسلم.

فعلى طالب العلم أنْ يعرف قدر نفسه، ويعلِّمَ الناس بقدر ما تعلَّم، ولا يُنصِّب نفسه مفتيًا يستقبل فتاوى الناس، فأسئلة الناس لا تنتهي وهي متنوعة، والناس لهم أغراض في أسئلتهم، فلا يفتح طالب العلم أذنيه لسماع كل شيء والجواب عنه.

وهناك مسائل نازلة ليس لآحاد أهل العلم الخوض فيها، وإنما هي لأكابر العلماء، كما قال الله تعالى: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) [النساء: ٨٣].

فالنوازل لها أهلها، والتدريس له أهله، والوعظ له أهله، والفُتيا لها أهلها ولها شروطها، التي من أعظمها: العلم بأدلة الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس ومعرفة دلالات الألفاظ وكيفية اقتباس الأحكام منها، ولابدَّ للمفتي أن يكون عالما بعلوم المقصد على سبيل العموم.

الثاني: قبل أن تجيب عن ما سُئلتَ عنه عليك أن تتأكد من السائل هل سؤاله عن مسألة واقعة أم فرضيَّة؟

فالاستفصالُ عن ذلك من هدي السلف.

فقد روى ابن أبي خَيْثَمَةَ في كتاب العلم بسنده إلى مُوسَى بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ، أَبِيهِ، قَالَ: "كَانَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ﵁ إِذَا سَأَلَهُ رَجُلٌ، عَنْ شَيْءٍ، قَالَ: آللَّهِ لَكَانَ هَذَا؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ. تَكَلَّمَ فِيهِ، وَإِلَّا لَمْ يَتَكَلَّمْ ".

فزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ﵁ كان إِذَا سَأَلَهُ رَجُلٌ، عن مسألة شرعية من مسائل العلم، يستحلفه هل وقعت هذه المسألة أم أنها فرضية؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ: يعني: وقعت هذه المسألة، تَكَلَّمَ فيما سُئل عنه ولم يكتم العلم، وَإِلَّا لَمْ يَتَكَلَّمْ.

فإذا كانت هذه المسألة افتراضية غير واقعة لم يتكلم فيها طالب العلم خشية القول على الله بغير علم، ولئلا يلجأ إلى الرأي والقياس في مسألة لم تقع، ولئلا يتكلف الكلام فيما لم يقع.

وقد قال عمر ﷺ كما في البخاري: "نهينا عن التكلف"، ومن التكلف أن يتكلف الإنسان ما لا علم له به ويحاول أن يَظْهَرَ بمظهر العالم وليس كذلك، أو يشدد على نفسه أو على غيره في أي أمر جعل الله فيه سعة.

والأسئلة على قسمين:

الأول: السؤال عما أشكل، فهذا مشروع؛ لقول الله عَزَّ وَجلَّ: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [النحل: ٤٣]، فيجيبه العالم إذا رأى مصلحة في ذلك.

وقد يتعيَّنُ الجوابُ على العالم إنْ كان دليل المسألة عنده حاضرًا، وكان وحيدًا، وأما إنْ كان معه غيرُه، فإنه يجوزُ له الامتناعُ.

والثاني: أسئلة غير مشروعة، ومنها السؤال عما لم يقع، ومنها السؤال عما لم يُسأل عنه، ومن ذلك السؤال عن كيفية استواء الله تعالى على عرشه.

وقد كان السلف يشددون على من يسأل مثل هذه الأسئلة التي لم يسأل عنها من هم أحرص الناس على تعظيم الله جَلَّ وَعلا.

والإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ لما سأله سائل عن الاستواء في قول الله عَزَّ وَجلَّ: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه: ٥]، قال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعه).

ومن فوائد هذا الأثر: أنَّ السؤال عن كيفية صفات الباري بدعة محدثةٌ؛ لأنَّه سؤال عما لا سبيل إلى علمه، ولا يجوز الكلام فيه، ولم يسبق ذلك في زمن رسول الله ﷺ ولا من بعده من أصحابه رضي الله عنهم.

الثالث: إذا ابتليت بالجواب، فحقِّقِ الكلامَ في المسألة، ويكون ذلك ببحثها بحثًا شاملًا بما في ذلك النظر في أقاويل العلماء فيها.

وقد اشتُهِرَ عن الإمام أحمد رحمه الله قولُه ناصحًا تلميذَه أبا الحسن الميموني: (إيَّاك أن تتكَّلم في مسألة ليس لك فيها إمام).

فالذي يريد السَّداد فيما يفتي به عليه أن يعتنيَ بفهم النصوص الشرعية وفق فهم السلف الصالح وعلى رأسهم الصحابة الكرام رضي الله عنهم

فيتعيَّنُ الأخذ إذا ورد عنهم ما لا مجال للرأي فيه.

وإذا اتفقوا في مسألةٍ أو قولٍ فلا يجوز الخروج عن سبيلهم.

وإذا تنازعوا في مسألة من مسائل العلم فيُنظر إلى نوع الاختلاف فإن كان اختلاف تنوع، فهو غير مؤثِّرٍ، وعامَّة النِّزاع بينهم رضي الله عنهم في تفسير كلام الله تعالى من قبيل اختلاف التنوع.

وإنْ كان الاختلاف بينهم اختلاف تضاد، فيُنظر إلى أمور وهي:

النظر إلى القول الأشبه بالكتاب والسنة، فإنْ تنازع الصحابة رضي الله عنهم في مسألة خالف فيها الصحابيُّ نصًّا فإنه يؤخذ بقول من وافق النصَّ.

فإن تعذَّر ذلك من نصِّ الكتاب والسنة أو أحدهما اعتبرت أقاويلهم من جهة القياس فيؤخذُ بقول من شابه قوله أصلًا من الأصول.

وإن كان التنازع بين الخلفاء الراشدين أو بعضهم وبين غيرهم من الصحابة قُدِّم قول الخلفاء أو بعضهم.

وإنْ تنازع الصحابة رضي الله عنهم في مسألة ليس فيها دليل ولا قول أحد من الخلفاء الراشدين فإنه يؤخذ بقول الأكثر منهم.

فإن قال قائل: ما المصادر التي يُستعان بها على فهم الكتاب والسنة وفق فهم السلف؟.

فيُقال: فهم القرآن وفق فهم الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وفهم التابعين تُدرَسُ فيه كتب التفسير بالمأثور.

ومن هذه التفاسير: تفسير الطبري، وابن أبي حاتم، وابن كثير، والبغوي.

وفهم السنة يُستعان عليه بدراسة كتب الآثار، ومنها:

مصنف عبد الرزاق، ومصنف ابن أبي شيبة، والسنن الكبرى للبيهقي، وسنن الدارقطني، والاستذكار لابن عبد البر.

فمن رام فهم النصوص الشرعية وفق فهم السلف فليكثر من القراءة في هذه المصنفات، والتفكُّرِ فيما اشتملتْ عليه، مع لزوم المنهجية العلمية في دراسة العلوم المعينة على ذلك، مع الصبر والتدرُّج في التأصيل، وأخذ العلم عن أهله حتى يصل طالب العلم إلى مراده بتوفيق الله وإعانته.

وإن خرجَ المفتي عن هذا المنهج في جوابه عن ما يُسألُ عنه، فقد وافق أهل البدع في باب الفهم السيء للنصوص الشرعية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " من فَسَّر القرآن أو الحديث وتأوَّله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله، ملحد في آيات الله، محرف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام".

❁❁❁❁❁

قال الناظم رحمه الله:

فَكَمْ رَأَيْتُ مِنَ عَجُولٍ سَـــابِقِ مِنْ غَيْرِ فَـهْمٍ بِالْخَطَـاءِ نَاطِقِ
أَزْرَى بِـهِ ذَلِـكَ فِي الْمَجَـالِسِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَـابِ وَالتَّنَـافُسِ

الشرح:

هذان البيتان فيهما التحذير من العجلة والتسرُّعِ في الجواب قبل فهم ما يُسْأَلُ عنه طالب العلم، وبيانُ شيءٍ من الآثار السيئة المترتِّبة على ذلك.

قال الناظم رحمه الله: (**فَكَمْ**)، وهي هنا للتكثير، أي: فكثيرًا ما **(رَأَيْتُ)** في الناس (**مِنَ عَجُولٍ سابقِ**) وكلمة عجول صيغة مبالغة، أي: كثير العجلة، فعنده تسرُّعٌ واندفاعٌ في طلب الشّيء وتحرّيه قبل أوانه، فالعجلةُ هي: فِعْل الشَّيء قبل وقته اللائق به، فتراه سابقًا غيره إلى الجواب الذي لم يَحِن وقتُه، فبسبب تسرُّعه يحصل الجواب قبل فهم السؤال، وتصوُّره تصوُّرًا حسنًا

وعمله هذا يترتَّب عليه مفاسد عظيمة منها ما نبَّه عليه الناظم رحمه الله بقوله:

أَزْرَى بِـهِ ذَلِـكَ فِي الْمَجَـالِسِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَـابِ وَالتَّنَـافُسِ

فالعجول المتسرّعُ يسابق غيره في المجالس إلى الجواب فيُعرِّضُ نفسه للازدراءِ وهو العيبُ وانتقاصُ القدْر عند العقلاء والعلماء وأهل التنافس في الخير والتسابق إليه.

فالعجلة في الجواب لا خير فيها، فمن مساوئها:

أَنَّهَا تَمْنَعُ مِنَ التَّثَبُّتِ وَالنَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ وَذَلِكَ مُوقِعٌ فِي الْمَعَاطِبِ، وتُوجِبُ لصاحبها كثرة الزلل بسبب عدم فهم ما يُسأل عنه، والوقوعَ في الخطأ والقولَ على الله بغير علم، وما يترتَّب على الخطأ من أمورٍ لا تُحمد عقباها، فقلَّ من استعجل إلَّا ندم، وهي دليل السَّفه، وخفة الحلم، وضعف العقل.

ومن استعجل فأخطأ احتاج إلى الاعتذار مما أخطأ فيه، وإذا كثر هذا منه تسبَّب في عدم طمأنينة الناس لما يقوله، ولذا ورد في أمثال العرب:(إيَّاكَ

وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ)، أي: لا ترتكب أمرًا تحتاج فيه إلى الاعتذار منه.

وقد كان السلف يعدُّون صاحِبَ العجلة في باب الفتيا والمتسرّع في الجوابِ عن كلِّ ما يُسأل عنه مجنونًا فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (**وَاللَّهِ إِنَّ الَّذِي يُفْتِي النَّاسَ فِي كُلِّ مَا يَسْأَلُونَهُ لَمَجْنُونٌ**) رواه الدارمي وابن عبد البر وغيرُهما.

والجُنون عرَّفه المناوي في التوقيف على مهمات التعاريف بقوله:

(هو اختلاط العقل بحيث يمنع وقوع الأفعال والأقوال على النهج المستقيم إلا نادرًا).

وهذا الأثر وصف فيه عبد الله بن مسعود ﷺ مَنْ يُفتي الناس في كل ما يسألونه بالجنون؛ لأن المجنون يوقع نفسه في المهالك بسبب نقص تقديره وقصور عقله، فأسئلة الناس كثيرة لا تنتهي، والناس يسئلون في شتى فنون العلم، والإحاطة بالعلم غير ممكنة، فلابدَّ من التحرز في الفُتيا.

ومن الناس من يسأل لمقاصد سيئة فيسأل تعنتًا، أو استهزاءً، أو اختبارًا ولهوًا ولعبًا، أو لمجرد التسلية وقضاء الوقت، فليس كل ما يُسأل عنه طالب العلم يُجيب عنه، بل يجيب على ما فيه مصلحة للسائل، فليس كل ما يُعلم يُقال.

فالذي يُفتي الناس في كلِّ ما يُسأل عنه، مثله مثل المجنون الذي يوقع نفسه في المهالك.

وبعضهم يتسرَّع في الفُتيا، وفي القول على الله بغير علم حتى لا يوصم بالجهل، أو يفعل ذلك بحثًا عن شهوات نفسه من البحث عن الشهرة وحبِّ المدح والثناء وتحصيل الدنيا، وكلُّ هذه هلكة لصاحبها، أو يقول على الله بغير علم فيقع في الوعيد الشديد.

وهذا الأثر فيه خطورة التسرع في الجواب والأحكام والفُتيا، فالفُتيا تحتاج إلى استحضار المعلومات وإلى مراعاة حال السائل فلا يجوز التسرُّع فيها.

والواجب على المرء إذا سُئل عن ما أشكل عليه أن يتأنى في الجواب، أو يقول: لا أدري، فالسلامة لا يعدلها شيء، أو يحيله إلى من هو أعلم منه ببعض المسائل العلمية في بعض جوانب العلم.

۞۞۞۞۞

قال الناظم رحمه الله:

وَقُـلْ إِذَا أَعْيَـاكَ ذَاكَ الْأَمْرُ مَـالِي بِمَـا تَسْـــأَلُ عَنْـهُ خُبْرُ
فَذَاكَ شَـــطْرُ الْعِلْمِ عِنْدَ الْعُلَمَا كَذَاكَ مَا زَالَتْ تَقُولُ الْحُكَمَا

الشرح:

هذان البيتان فيهما وجوب اعتراف المرء بقدر نفسه في العلم، وأنه مهما بلغتْ مرتبته في العلم فإنَّ ما فاته من علم أعظم مما حصَّله.

فمن جهل مسألة شرعية وجبَ عليه أن لا يخوض فيها بغير علمٍ، مع اعترافه بجهل هذه المسألة.

فمن حسن الأدب: أن تقول (**إِذَا أَعْيَاكَ**)، أي: أعجزك، ولم يتبيَّن لك (**ذَاكَ الْأَمْرُ**) الذي سُئلتَ عنه، (**مَالِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خُبْرٌ**)، أي: ليس عندي معرفة وعلمٌ به، (**فَذَاكَ**)، وهو قولك:(مَالِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خُبْرٌ) أو ما جاء في معناه مثل قول: «الله أعلم»، أو: «لا أدري»، (**شَطْرُ الْعِلْمِ عِنْدَ الْعُلَمَا**)، فالعِلْمُ عند العلماء إِنَّمَا هُوَ: أَدْرِي، وَلَا أَدْرِي، فَأَحَدُهُمَا نِصْفُ الْآخَرِ، (**كَذَاكَ مَا زَالَتْ تَقُولُ الْحُكَمَا**)، فالحكماءُ وهم: المتَّصفون بالرأي السديد ووضع الأمور في نصابها كذلك تقول: لا أدري.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إذا تَرَكَ العالِمُ قولَ: "لا أدري" أُصيبت مقاتِلُه)، أي: هلكَ مَنْ تركَ هذه الكلمة، وما جاء في معناها.

وقال محمد بن سيرين رحمه الله: (لأنْ يموت الرجلُ جاهلًا خيرٌ له من أن يقول ما لا يعلم).

فمن قال في الكتاب والسنة برأيه المخالف للشرع، وبقياسه الفاسد، الذي تُعارَض به السنة وتُرد به النصوص الشرعية، وقال بالتأويل الفاسد وهو: صرف الألفاظ عن ظاهرها بدون قرينة، فقد قال على الله جل وعلا بغير علم.

ومن قال على الله ما لا يعلم فهو من المتكلفين.

وقد جاء عن عمر ﷺ أنه قال: "نُهينا عن التكلف" رواه البخاري.
والتكلف: تعاطي ما فيه مشقة من دون حاجةٍ إلى ذلك، ويكون في الأقوال وفي الأفعال، ومنه أنْ يتكلَّف الإنسان ما لا علم له به، فيقول على الله بغير علم.

۞۞۞۞۞

قال الناظم رحمه الله:

وَالصَّمْتُ فَاعْلَمْ بِكَ حَقًّا أَزْيَنُ	إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْـدَكَ عِلْمٌ مُتْقَنُ
إِيَّاكَ وَالْعُجْبَ بِفَضْــلِ رَأْيِكَا	وَاحْذَرْ جَوَابَ الْقَوْلِ مِنْ خَطَائِكَا
كَمْ مِنْ جَوَابٍ أَعْقَبَ النَّدَامَةَ	فَاغْتَنِمِ الصَّـمْتَ مَعَ السَّـلَامَةِ

الشرح:

المقصود هنا تنبيه طالب العلم إلى أمرٍ يجب أن يعلمه حقَّ العلم، وهو وجوب الصَّمْتِ عن ما لا يعلم، وعدمُ التسرُّع في الجواب.

فالامتناع عن التكلُّمِ بما لا يُعتدُّ به، ولا يفيدُ شيئًا، أشدُّ زينة لطالب العلم، إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَه عِلْمٌ مُتْقَنٌ.

وإتقانُ العلم معناه: الإحكام والتجويد.

ويدخل في ذلك: ضبطُ العلم وتفهُّمه بدقة عالية ومعرفة الأدلة بعللها، وضبط القواعد الكلية وما تيسَّر من جزئياتها، ونحو ذلك.

ووجه كون الصمت إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتْقَنٌ أزينَ وأحسنَ وأجمل: أنه دليل على التواضع، والحرص على السلامة من القول على الله عز وجل بغير علم، والبعد عن إضلال السائلين.

وأما مَنْ كانَ صاحبَ علمٍ متقَنٍ فيحرم عليه الصمتُ إذا تعيَّنَ عليه الكلامُ، كأنْ يحتاج الناس إليه في تعليمهم أمر دينهم ونحو ذلك.

ومن القواعد الفقهية المقرَّرة: أنَّ (الوسائل تعطى أحكامَ المقاصد)، وهذه القاعدة تبيِّن أنَّ الكلام إذا أدَّى فِعْلُهُ إلى أمرٍ من الأمور الواجبة فإنه يكون واجبًا.

قال ابن عبد البر رحمه الله في جامع بيان العلم وفضله: (الْكَلَامُ بِالْخَيْرِ أَفْضَلُ مِنَ السُّكُوتِ؛ لِأَنَّ أَرْفَعَ مَا فِي السُّكُوتِ السَّلَامَةُ، وَالْكَلَامُ بِالْخَيْرِ غَنِيمَةٌ، وَقَدْ قَالُوا: مَنْ تَكَلَّمَ بِالْخَيْرِ غَنِمَ وَمَنْ سَكَتَ سَلِمَ).

ثم حذَّر الناظم من صفة ذميمة لها آثارها السيئة على طالب العلم،

وهي صفة العجب، فقال:

إِيَّاكَ وَالْعُجْبَ بِفَضْـــلِ رَأْيِكَا وَاحْذَرْ جَوَابَ الْقَوْلِ مِنْ خَطَائِكَا

فاحذر يا طالب العلم كلَّ الحذر من داء العجب وهو: (أنْ ترى أنَّ عندك شيئًا ليس عند غيرك)، كما قاله عبد الله بن المبارك رحمه الله.

فمن أمارة جهل المرء: أن يعجب بفضل رأيه، وهو ما أعطاه الله تعالى من مزيد فضل في الحفظ والفقه والفهم والتأليف والذكاء وكثرة التعبُّد، فيظنُّ أنه وصل إلى مرحلة من الكمال بحيث لا يلحقه أحد فيه، ويظن أنَّ العلم الذي عنده لا يوجد عند غيره، ويرى أنه وصل إلى مرحلة الكمال في علمه وفصاحته وبلاغته وأسلوبه، ويرى أنه الأحقُّ بالإفتاء والتعليم والنقد العلمي وتوجيه الناس وإرشادهم دون غيره، فهذا هو غاية العُجب.

وهذه الآفة موقعةٌ لفاعلها في المهالك، ومما يدل على ذلك:

حديث أنس رضي الله عنه عَن رَسُول الله ﷺ قَالَ: (وَأما المهلكات فشح مُطَاع وَهوى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفسِهِ) أخرجه البزار في مسنده، والطبراني في المعجم الأوسط، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب:(حسن لغيره) .

ووجه كونها مهلكة للعبد أنه يترتب عليها آثار سيئة، منها:

أولًا: نسيانه نعمة الله عليه، فالعلم فضل من الله عليك وعلى أهل العلم، فلا تظن أنك وصلت إلى مرحلة في العلم لم يصل إليها أحد غيرك.

ثانيًا: إصرار من ابتُلي بهذا الداء على أقواله المخالفة وعدم رجوعه إلى الحق، وربما صاحبَهُ ازدراء الآخرين والعلو عليهم ، وهذا هو الكِبر، فالعجب بوابة الكِبر.

ثالثًا: العُجب إذا ابتُلي به المرء يؤدي إلى احتقار العُصاة.

فبعض الناس يمنُّ الله عليهم بالتبكير للصلاة، وبحفظ القرآن، وبحسن الاستقامة والعمل، لكنه يزدري العصاة، وهذا غلط فإذا رأيت مبتلىً بمعصية فاحمد الله أن عافاك مما ابتلاه به وادع الله له، واحمد الله أن منَّ عليك

بالاستقامة، فإذا حصل منك احتقار لهذا الشخص فهذا هو العُجب بعينه ويُخشى عليك من آثاره السيئة.

وإذا ابتُلي المرء بمرض من أمراض القلوب فعليه أن يُعجل بمحاسبة نفسه وبتأديبها وأن ينظر إلى حال من هو أعلى منه في العلم وحال من هو أشد خشية لله منه، فهذا من أعظم ما يزيل الله به هذه الأدواء.

رابعًا: العُجب بالنفس قد يجر إلى أمور خطيرة كالزندقة.

قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ في تعليقه على الحموية: (وكثير من الأذكياء قد يتزندق بسبب ذكائه ويحتقر الناس ويرى أنهم ليسوا على شيء فيضل ويهلك -نعوذ بالله- لأنه يرى أن علمه فوق علمهم وفهمه فوق فهمهم وذكائه فوق ذكائهم، والعاقل عليه أن يعرف قدر نفسه وأن يميل إلى التواضع).

ثم قال الناظم رحمه الله: (وَاحْذَرْ جَوَابَ الْقَوْلِ مِنْ خَطَائِكَا)، أي: كنْ على حذرٍ من الاستعجال في الجواب عن كلِّ ما تُسأل عنه، أو من القول على الله بغير علمٍ، فتقع في الخطأ في الجواب، وهذه ثمرة من ثمرات الإعجاب بالنفس.

ومن ثمرات العجلة في الجواب عن ما لا تعلمه، أو لم تحقق الكلام فيه، ما نبَّه عليه الناظم بقوله: **(كَمْ مِنْ جَوَابٍ أَعْقَبَ النَّدَامَةَ)**، وكم هنا للتكثير، فبعض الأجوبة التي فيها عجلة قد تورِّثُ الندامة على صاحبها وعلى المسلمين، ومن ذلك الخوض بدون علمٍ في النوازل فيترتَّب على قوله الوقوع في البدع، كالخروج وحصول الفتن كإراقة الدماء المعصومة، واختلال الأمن، وكم من خائض بغير علم في قضايا الطلاق قد تسبَّب في تفريق الأسر، وحصول الشرِّ والبلاء، مع ما يجنيه من الوقوع في الإثم، كما دلَّ عليه حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ، وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَهُ) رواه أبو داود وحسَّنه الألباني.

ثم قال الناظم رحمه الله: (**فَاغْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَةِ**)، أي: احرص على الصمت حين تعيُّنه، وعُدَّه مغنمًا، فإذا صمتَّ حصلتْ لك النجاة وسلمتَ في دينك ودنياك، وقد جاء في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (مَنْ صَمَتَ نَجَا) رواه الترمذي وصححه الألباني.

فسلامة المرء في حفظ لسانه، فمن سكت عن الشرِّ فازَ وظفرَ بكلِّ خير، ونجا من آفات الدارين.

۞۞۞۞۞

قال الناظم رحمه الله:

الْعِلْمُ بَحْرٌ مُنْتَهَاهُ يَبْعُدُ   لَيْسَ لَهُ حَدٌّ إِلَيْهِ يُقْصَدُ
وَلَيْسَ كُلُّ العِلْمِ قَدْ حَوَيْتَهُ   أَجَلْ وَلَا الْعُشْرَ وَلَوْ أَحْصَيْتَهُ
وَمَا بَقِي عَلَيْكَ مِنْهُ أَكْثَرُ   مِمَّا عَلِمْتَ وَالجَوَادُ يَعْثُرُ

الشرح:

المقصود هنا تنبيه طالب العلم إلى ترك العجب، فإنَّ ما غاب عنه من علمٍ أكثرُ مما عنده منه.

والأئمة الكبار مع غزارة علمهم كانوا يعرفون أقدار أنفسهم ويحتارون في جملة من المسائل، ويخشون الفتيا بدون علم، ويتدافعون الأمر.

فلا تدَّع يا طالب العلم ما ليس عندك، وتذكَّر أنَّ ما أوتيته من العلم ولو كان غزيرًا إنما هو قطرة من بحر علم الله تعالى.

وقد قال الخضر لموسى عليهما السلام عندما رأى عصفورًا ينقر بمنقاره في البحر: (يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحْرِ) رواه البخاري.

فالعلْم، بل كلُّ نوعٍ من أنواعه بحرٌ منتهاه بعيد لا ساحل له، ومحيط لانهاية له، فليس للعلم خطٌّ إليه ينتهي البصر.

قال الماوردي رحمه الله في كتابه أدب الدنيا والدين: (قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْمُتَعَمِّقُ فِي الْعِلْمِ كَالسَّابِحِ فِي الْبَحْرِ لَيْسَ يَرَى أَرْضًا، وَلَا يَعْرِفُ طُولًا وَلَا عَرْضًا).

فإذا كان الأمر كذلك فاعلم أنَّ كلَّ ما حويته وجمعته وأحرزته من علمٍ لا يبلغ عُشْرَ العلم، بل لو أحصيت ما عندك من علم لوجدته دون ذلك، فما بقي وفَضُل عليك يا طالب العلم أكثر مما علمت، فإذا كان العلم واسعًا، فاحرص على التزوُّدِ منه، مع ضبط أصوله، فإنه لَا يُمكن لطالب العلم أَن يصير عالمِا مَا لم تكن لَهُ دراية بالأصول.

قال السعدي رحمه الله: (فإنَّ الإنسان إذا حفظ الأصول وصار له ملكة تامَّة في معرفتها هانتْ عليه كتب الفن كلها: صغارها وكبارها، ومن ضيع الأصول حرم الوصول).

وكنْ صاحب نهمة فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فطالبُ العلم كلما ازداد علمًا عرف مقدار جهله، فازداد من تحصيل العلم؛ ليرفع الجهل عن نفسه ويرفعه عن غيره، ثم كلما ازداد علمًا تعلَّق بالعلم الآخر في شتى العلوم، لأنه يُكمِّل بعضها بعضًا، ويستمر في هذا الطريق حتى يلقى ربَّه، فإن سلوك هذا الطريق موصلٌ إلى الجنة.

وقول الناظم رحمه الله: (**وَالْجَوَادُ يَعْثُرُ**)، فيه تنبيه إلى أنه لا يمكن أن يَسْلَمَ عالِمٌ من الوقوع في الغلط ولو كان محقِّقًا في العلم؛ لأنه لم يُحِط بمسائل العلم، فهو عرضة للتعثُّر، فمَثَلُهُ كمِثْلُ الجواد النجيب سريع الجري، فإنه عُرْضَةٌ للتعثر والسقوط.

وقد قَالَ بَعْضُ حُكَمَاءِ الْعَرَبِ: (لِكُلِّ جَوَادٍ كَبْوَةٌ، وَلِكُلِّ صَارِمٍ نَبْوَةٌ، وَلِكُلِّ عَالِمٍ هَفْوَةٌ).

فالعالم إذا وقع في الغلط فإنه لا تجوز متابعته على زلَّته، مع الاعتذار له قدر الاستطاعة، فقد يقع العالم في الغلط بسبب خفاء الدليل عليه، أو خفاء دلالة الدليل على المسألة الفرعية، وفي وجوده بحيث لا يكون مشتهرًا متداولًا، أو بسبب الذهول عن الدليل، وهو غيابه عن ذهنه، فإذا ما ذُكِّرَ به تذكَّرَ، أو بسبب عدم بلوغ العالم الدليل، أو بسبب الغلط في فهم النص، وقد يعلم العالم الدليل ولا يعمل به، لمعارض راجح عنده، أو لغير ذلك من الأسباب.

والوصية أن يقرأ طالب العلم المصنفات في بيان أسباب الاختلاف بين العلماء في المسائل الشرعية عمومًا حتى لا تكون عنده جرأة على تنقُّصِ أهل العلم، والحطِّ من أقدارهم، والمصنفاتُ في هذا الباب كثيرة من أهمها: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لابن تيمية، و:« اختلاف العلماء وموقفنا

منه»، لابن عثيمين، و:«أسباب اختلاف الفقهاء» لعلي الخفيف، و: «موقف الأمة من اختلاف الأئمة» لعطية محمد سالم، وغيرها كثير.

ومن الآفات التي ابتُلي بها بعض الأحداث والصغار في العلم: التنقص من بعض أهل العلم بسبب قصورهم في بعض فنون العلم والإعراضُ عنهم، فهذه مشكلة عظيمة فإذا كنت تبحث عن شيخ متقن لجميع العلوم فإنك لن تجد هذا الصنف من الناس فإنه لا يوجد عالم متقن لجميع العلوم من جميع جوانبها كما دلَّ على ذلك قول الله تعالى: (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)، والمعنى: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم، فاعرف لأهل العلم قدرهم، وتعلَّم منهم ما أتقنوه من علمٍ، ولا تتابعهم على زلَّاتهم.

❁❁❁❁❁

قال الناظم رحمه الله:

فَكُنْ لِمَا سَمِعْتَهُ مُسْــتَفْهِمَا إِنْ أَنْتَ لَا تَفْهَمُ مِنْهُ الْكَلِمَا

الشرح:

في هذا البيت تنبيه لطالب العلم والمفتي والمستفتي إلى ترك الخَجَلِ مِن الاستفهام، ويكون ذلك بمراعاة أمرين:

الأول: طلب الاستفهام في باب تعلُّم العلم.

فإذا لم تفهم الكلام الذي سمعته، ومثله الكلام المقروء، فعليك أن تستفهم، أي: تستفسرَ وتستوضحَ وتسترشد أهل العلم عن معنى ما جهلتَ؛ لئلا تسيء فهم النصوص الشرعية، أو فهم كلام العلماء، ويكون الاستفهام أيضًا عن طريق قراءة كتب التفسير والشروح التي تبيّنُ غوامض ما قد يُستَشْكَلُ، فالاستفهام يعين على صحَّة الفهم.

ومما يدل على وجوب استفهام طالب العلم عن ما يجهله:

عموم قول الله تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)، فالله تعالى أمرَ مَنْ لا يعلم بالرجوع إلى أهل الذكر في جميع ما يجهله.

ومن الشواهد العمليَّة الدالَّة على أنَّ الاستفهام عَنْ ما يجهله المرء من هدي السلف:

أنَّ النبي ﷺ قال يومًا: (لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلَّا هَلَكَ)، قَالَتْ عائشة رضي الله عنها: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا)، قَالَ: (ذَاكَ الْعَرْضُ يُعْرَضُونَ وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ) رواه البخاري ومسلم.

والمعنى: من يُدقَّق معه في المحاسبة؛ فإنه سيعذب بذنبه.

فسألتْ عائشة رضي الله عنها عن ما أشكلها عليها، وهذا هو الواجب شرعًا.

الثاني: طلب الاستفهام في باب الفتيا.

فعلى المستفتي إن لم يفهم جواب المفتي أن يخبره بذلك حتى يُفْهِمه الجواب، فيحصل المقصود من الفتيا.

وعلى المفتي أن يستفسرَ ويستوضحَ من المستفتي قبل الجواب عن سؤاله إذا كان السؤال محتملاً، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره.

فمثلًا إذا سئل المفتي في باب المواريث عن فريضة فيها أخ، ولم يفصِّل المستفتي فيجب على المفتي أنْ يسأله: هل الأخُ لأب، أو لأم، وهل شروط الإرث متوفِّرة فيه أم لا؟ وهل ثَمَّة موانع تمنعه من الميراث؟ ثم يجيبه بعد ذلك.

فالاستفصال يحصل به تجنب الخطأ في الفتوى، فقد يُهمل السائل تفاصيل لها أثرٌ في تغيُّر الحكم الشرعي، والاستفهام يكشف هذه التفاصيل.

ومن فوائد الاستفهام: كشف حال السائل هل يسأل عن مسألة واقعة تستوجب الإجابة عنه؟ أم يسأل عن مسألة افتراضيَّة، أو فضوليَّة، أو تعنُّتيَّة، أو فيها تحايل للوصول إلى فعل محرَّم فهذه حقُّها عدم الجواب عنها؟.

والاستفصال قبل الجواب دلَّتْ عليه النصوص الشرعية، ومن الشواهد على ذلك:

ما جاء في حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه: (أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ؟ قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ، فَقَالَ: ٱنْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا) رَوَاهُ أَحْمَدُ وهو حسن بشواهده.

فقول النبي صلى الله عليه وسلم لعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه: (مَا هَذَا؟) ذكر بعضُ الشرَّاح أنَّ الاستفهام هنا للاستفصال، أي: لماذا لبستها هل هي للحلية أو للاستشفاء أو لدفع العين، أو لأيِّ غرض؟ فلبس الحلقة في اليد قد يكون فاعله جاهلًا وقد يقع فيه تشبُّهًا بالكفرة لا لاعتقادٍ فيها، وقد يلبسها لأجل اتخاذها أسباباً لِرَفْعِ البَلَاءِ بعد نزوله، أَوْ دَفْعِهِ، قبل وقوعه، ويعتقد أنَّها بذاتها تنفع، وتضرُّ من دون الله تعالى فهذا شركٌ أكبر، وقد يلبسها معتقدًا أنها

أسباب يُرفع بها البلاء أو يُدفع، فهذا شركٌ أصغر؛ لأنه جعل ما ليس بسببٍ سببًا، فالحكم قد لا يُعرفُ إلا بعد الاستفصال من السائل.

وقد نبَّه أهل العلم على أهمية لزوم المفتي لمسلك الاستفصال من المستفتي، وعدُّوه من جملة الآداب التي يجب على المفتي الاتِّصاف بها.

قال القرافي رحمه الله: (ينبغي للمفتي أن لا يأخُذَ بظاهرِ لفظِ المستفتي العاميّ حتى يَتبيَّن مقصودَه، فإنَّ العامَّة ربما عبَّروا بالألفاظ الصريحة عن غير مدلول ذلك اللفظ، ومتى كان حالُ المستفتي لا تَصْلُح له تلك العبارة ولا ذلك المعنى، فذلك رِيبةٌ ينبغي للمفتي الكشفُ عن حقيقة الحال كيف هو؟ ولا يَعتمدُ على لفظِ الفُتيا أو لفظِ المستفتي، فإذا تحقَّقَ الواقعَ في نفس الأمر ما هو؟ أفتاه، وإلا فلا يُفتيه مع الرِّيبة، وكذلك إذا كان اللفظُ ما مثلُهُ يُسْأَلُ عنه، ينبغي أن يستكشِفَ، ولا يُفتيَ بناءً على ذلك اللفظ، فإنَّ وراءه في الغالب مَرمىً هو المقصود، ولو صَرَّحَ به امتنَعتِ الفُتيا).

وجاء في مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى: (وَيَحْرُمُ عَلَى مُفْتٍ إطْلَاقُ الْفُتْيَا فِي أَمْرٍ مُشْتَرَكٍ إجْمَاعًا قَالَهُ ابْنُ عَقِيلٍ، وَالْمُرَادُ: حَيْثُ لَا ظَاهِرَ، فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ ظَاهِرًا فَلَا يَفْتَقِرُ إلَى تَفْصِيلِ الْجَوَابِ، وَمَنْ سُئِلَ أَيُؤْكَلُ بِرَمَضَانَ بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ؟ لَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ الْفَجْرِ الْأَوَّلِ أَوْ الْفَجْرِ الثَّانِي).

وكان بعض فقهاء التابعين إذا سأله المستفتي طلبَ منه إعادة السُّؤَال مرَّة ثانية ليتثبَّتَ من صوابِ فهمِهِ لسؤالِه، ولمَعانٍ أُخَرَ أيضًا.

قال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين: (كان أيوب السَّخْتِيانيُّ البصريُّ التابعيُّ أحدُ الفقهاء العُبَّاد، إذا سأله السائل قال له: أَعِدْ، فإنْ أعاد السؤال كما سأله عنه أولًا أجابه، وإلَّا لم يجبه).

۞۞۞۞۞

قال الناظم رحمه الله:

الْقَوْلُ قَوْلَانِ فَقَوْلٌ تَعْقِلُـهُ وَآخَرُ تَسْــمَعُـهُ فَتَجْهَلُـهُ
وكـلُّ قـولٍ فـلَـهُ جـوابُ يَجْمَعُـهُ البَـاطِـلُ والصَّــوابُ

الشرح:

المعنى: لا تتسرَّع يا طالب العلم في الحكم على الأقوال التي تسمعها من المستفتين.

فأقوال المستفتين نوعان:

الأول: قولٌ تسمعه وتعقله.

والعقلُ: متضمِّنٌ لفهم الكلام، فإذا فهمتَ كلام السائل، وعلمتَ الدليل الشرعيَّ عن مسألته فلتجبه إنْ كان في ذلك مصلحة.

الثاني: قولٌ تسمعه فتجهله.

فإنْ كان الجهل بالحكم الشرعي فلا تُجِبِ المستفتي دون علم، وعليك أن تحيله إلى غيرك من أهل العلم أو تنظره حتى تبحث جواب مسالته.

وإنْ كان الجهل سببه عدم فهم مقصد السائل من سؤاله فلتستفصل منه ثم تجيبه عن ما سأل.

وقول الناظم:

وكـلُّ قـولٍ فـلَـهُ جـوابُ يَجْمَعُـهُ البَـاطِـلُ والصَّــوابُ

المراد: أنَّ أيَّ قولٍ يصدر مِنْ مستفتٍ أو طالبِ علمٍ فإنه يمكنُ الجواب عنه بأحد طريقين: طريق باطل وآخر هو الصواب.

الأول: الطريق الباطل، وهو الوقوع في الجواب الباطل، ومن صوره:

أن يقع المفتي في الجواب الباطل شرعًا بسبب جهله بالحكم الشرعي في مسألةٍ بعينها، فعليه أن يبحثها، حتى لا يفتي بغير علمٍ، وله أن يستشير من يثق به من أهل العلم في الفتيا.

قال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين: (إنْ كَانَ عِنْدَهُ مَنْ يَثِقُ

بِعِلْمِهِ وَدِينِهِ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُشَاوِرَهُ، وَلَا يَسْتَقِلَّ بِالْجَوَابِ، ذَهَابًا بِنَفْسِهِ وَارْتِفَاعًا بِهَا، أَنْ يَسْتَعِينَ عَلَى الْفَتَاوَى بِغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَهَذَا مِنَ الْجَهْلِ، فَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ أَمْرَهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ، وَقَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)، وَقَدْ كَانَتْ الْمَسْأَلَةُ تَنْزِلُ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ، فَيَسْتَشِيرُ لَهَا مَنْ حَضَرَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَرُبَّمَا جَمَعَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ، حَتَّى كَانَ يُشَاوِرُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ إِذْ ذَاكَ أَحْدَثُ الْقَوْمِ سِنًّا، وَكَانَ يُشَاوِرُ عَلِيًّا ﷺ وَعُثْمَانَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَغَيْرَهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ).

وقد يقع المفتي في الجواب الباطل شرعًا بسبب تسرُّعه في الجواب دون استفهام واستفصالٍ من السائل، وهذا التعجُّلُ محرَّمٌ، ومن ابتلي به من المفتين فإنه لا يجوز أنْ يُسْأَلَ.

قال النووي رحمه الله في المجموع: (يَحْرُمُ التَّسَاهُلُ فِي الْفَتْوَى وَمَنْ عُرِفَ بِهِ حَرُمَ اسْتِفْتَاؤُهُ، فَمِنْ التَّسَاهُلِ: أَنْ لَا يَتَثَبَّتَ وَيُسْرِعَ بِالْفَتْوَى قَبْلَ اسْتِيفَاءِ حَقِّهَا مِنْ النَّظَرِ وَالْفِكْرِ، فَإِنْ تَقَدَّمَتْ مَعْرِفَتُهُ بِالْمَسْئُولِ عَنْهُ فَلَا بَأْسَ بِالْمُبَادَرَةِ).

وقد يقع المفتي في الجواب الباطل بسبب التعصُّب للآراء المذهبية المخالفة للدليل، وهذه آفة عظيمة، فيها موافقة لأهل البدع والأهواء، فمنهج السلف في باب الاستدلال، قائم على الاتِّباع، فمن خالف هذا المسلك، فهو قائل على الله تعالى بغير علم.

قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العزيز رحمه الله: (لا رأي لِأَحَدٍ مَعَ سُنَّةٍ سَنَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ).

وقال ابن القيم رحمه الله: (يحرُم على المفتي أن يفتي بضدِّ لفظ النصِّ، وإنْ وافق مذهبه).

الثاني: الطريق الصَّواب الموافق للحقِّ والحكمة.

فعلى طالب العلم إذا أراد أن يكون جوابه صوابًا: أن يحرص على موافقة الدليل الشرعي وفق ما فهم السلف الصالح، وأنْ يُجرِّد المتابعة للنبي ﷺ، وتجريدُ المتابعة له ﷺ هي أحد شرطي قبول الأعمال عند الله تعالى، وهي حقيقة شهادة أنَّ محمدًا ﷺ رسول الله.

ووجه الصواب في هذا الطريق: أنَّ الشريعة كاملة، فكيف يسع إفتاء المستفتين بخلافها، فكلُّ ما يحتاج الناس إليه في دينهم، قد بيَّنه الله تعالى بيانًا شافيًا، كما قال الله سبحانه: (وَنزلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ)، أي: في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكلُّ ما يحتاج إليه العباد، فهو مبيَّنٌ فيه أتمَّ تبيين بألفاظ واضحة ومعان جليَّة.

والنبيُّ ﷺ بيَّن لأصحابه رضي الله عنهم جميع معاني القرآن الكريم، كما قال الله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

والمرادُ بالبيان: عمومه فهو شامل لبيان الألفاظ المسْتَشْكَلَةِ، وللبيان العام، الذي تدخل فيه السنة بأنواعها الثلاثة، ويدخل في ذلك تفسير الأحكام المجملة في القرآن، أو تقييد حكم جاء في القرآن مطلقًا، أو تخصيص حكم عام في القرآن الكريم، فالشريعة كاملة وبيِّنة، فلا وجه للجواب بخلافِ ما دلَّت عليه.

❁❁❁❁❁

قال الناظم رحمه الله:

وَلِـلْـكَـلَامِ أَوَّلٌ وَآخِـرُ فَافْهَمْهُمَا وَالذِّهْنُ مِنْكَ حَاضِرُ

الشرح:

المراد بهذا البيت: تنبيه طالب العلم والمفتي قبل الجواب عن السؤال إلى أنَّ الكلام له أوَّلٌ وآخِرٌ، فلا يصلح أن تجيب السائل دون الالتفات إلى سياق كلامه وسباقه، فالسياق والقرائن عن طريقها يُفهَم مراد المتكلم من كلامه، وهي المرشدة إلى بيان المجملات، وتعيين المحتملات، فيجب على المفتي قبل إصدار الأحكام الشرعية فهْمُ أوَّلِ الكلام وآخره، وعدم التسرُّع في الجواب، وليكن ذهنه وعقله وفهمه الصحيح، وفطنته حاضرة موجودة حتى لا يقع في الغلط.

فمراعاة هذا الأدب له أثر في ترتُّب الأحكام الشَّرعيَّة، ومن صور ذلك:

أولًا: كلام الناس له أوَّلٌ وآخرٌ.

فعلى المفتي أن يسمع كلام المستفتي من أوَّله إلى آخره، وأنْ لا يستعجل في جوابه قبل انتهاء كلامه، فسياق الكلام، وهو: ما يسبقه وما يلحقه من قرائن يحدِّد مراد المتكلم ويجعله كالنصِّ القاطع الذي لا يقبل التأويل.

وعليه أنْ ينتبَّه لمناسبة سؤالِهِ وملابساتِهِ وظروفه، فالحكمُ على الشيء فرْعٌ عن تصوُّره.

ثانيًا: النصوص الشرعية.

فلا يصلح أن تفسَّر الألفاظ تفسيرًا مجرَّدًا دون النظر إلى سياق الكلام وسباقه.

فالكلام قد لا يُعرَفُ معناه إلا بمعرفة: سياقه، وهو:" أسلوبه الذي يجري عليه، وقولُهم: (وقعتِ هذه العبارةُ في سياق الكلام)، أي: مدرجةً فيه والسِياق ما قبل الشيء".

ومثال ذلك: أنَّ بعض الآيات القرآنية يُعرفُ عند النظر في سياقها أنَّ ظاهرها غيرُ مراد، ومنه قول الله تعالى: (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ، فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ) [الأنبياء: ١١-١٢].

قال الإمام الشافعي رحمه الله في الرسالة: " فذَكَر قَصْمَ القرية، فلما ذكر أنها ظالمة بَانَ للسامع أن الظالم إنما هم أهلها، دون منازلها التي لا تَظلم، ولما ذكر القوم المنشَئِين بعدها، وذكر إحساسَهم البأسَ عند القَصْم، أحاط العلمُ أنه إنما أحسَّ البأس من يعرف البأس من الآدميين".

۞۞۞۞۞

قال الناظم رحمه الله:

لَا تَـدْفَـعِ الْـقَـوْلَ وَلَا تَـرُدَّهُ حَتَّى يُؤَدِّيـكَ إِلَى مَـا بَعْـدَهُ

الشرح:

هذا البيت فيه الحثُّ على التحلي بأدب الاستماع، وهو: إمهال المتكلِّم حتى ينتهي من حديثه، فلا تستعجل يا طالب العلم، فتبادِرَ إلى ردِّ القول الذي تسمعه من القائل قبل أن يُتِمَّ كلامه، حتى يقودك هذا القول إلى ما بعده، وهو: آخر كلام المتكلِّم، الذي يتبيَّن به مرادُه.

ومن صور الاستعجال في دفع الأقوال وردِّها:

أولًا: اعتراض الطالب على شيخه قبل إتمام شرح المسألة، فقد لا يفهم الطالبُ الجوابَ إلا بعد إكمالِ الشرح.

ثانيًا: مقاطعة المعلِّم لسؤال التلميذ، وجوابه قبل إتمام سؤاله.

ثالثًا: مقاطعة السائل للمفتي في أثناء جوابه قبل أن يُتمَّه.

رابعًا: عدم استماع المفتي لكلام المستفتي من أوله إلى آخره، فمرادُ المتكلِّم قد لا يتَّضح إلا بعد الاستفصال والاستفهام.

خامسًا: تسفيه رأي الطرف الآخر وعدمُ سماع حجَّته، فربَّما كان الحقُّ مع المخالف.

ومما ورد في الحثِّ على حسن الاستماع، وعدم مقاطعة حديث غيرك:

ما ذكره ابن عبدالبر رحمه الله في جامع بيان العلم وفضله عن الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنه وقوله لِابْنِه: (وَتَعَلَّمْ حُسْنَ الِاسْتِمَاعِ كَمَا تَتَعَلَّمُ حُسْنَ الصَّمْتِ، وَلَا تَقْطَعْ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثًا وَإِنْ طَالَ حَتَّى يُمْسِكَ).

وقَالَ ابْنُ الجَوْزِيّ رحمه الله: (وَمَتَى أَشْكَلَ شَيْءٌ مِنْ الْحَدِيثِ عَلَى الطَّالِبِ صَبَرَ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْحَدِيثُ، ثُمَّ يَسْتَفْهِمُ الشَّيْخَ بِأَدَبٍ وَلُطْفٍ وَلَا يَقْطَعُ عَلَيْهِ فِي وَسَطِ الْحَدِيثِ).

قال الناظم رحمه الله:

فَرُبَّمَا أَعْيَى ذَوِي الْفَضَائِلِ	**جَوَابُ مَا يَلْقَى مِنَ الْمَسَائِلِ**
فَيُمْسِكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِهِ	**عِنْدَ اعْتِرَاضِ الشَّكِّ فِي صَوَابِهِ**

الشرح:

هذان البيتان يُبرزان أهمية لزومِ أهل العلم للأدب عند مواجهة المسائل المشكلة، فأصحاب الفضل والعلم والأخلاق الحميدة ربَّما تعجزهم في مواطن كثيرة معرفة الجواب عن بعض الأحكام الشرعيَّة، وتلتبس عليهم فيحصل عندهم الشكُّ والرَّيبُ في صحَّة الجواب، ولا يجدون جوابًا حاضرًا أو شافيًا لما استشكلوه، فيفضِّلون الصمتَ والسكوت على المجازفة بجوابٍ غير دقيق، فكان الورع والتحرِّي أولى بهم من القول على الله بغير علم، فمن التواضع العلميِّ أن يعرفَ المرء قدر نفسه وأن لا يُجيبَ عن كلِّ ما يُسألُ عنه، حتى يتيقَّن من صحة الجواب.

والصمْتُ عن جواب ما لم يحط به المرء علمًا دلَّ عليه الهدي النبوي العمليُّ، ومن الشواهد على ذلك ما جاء في حديث جبريلَ المشهورِ أنه قال لرسول الله ﷺ: (فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ)، فقال ﷺ: (مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ) رواه البخاري ومسلم، والمعنى: أنت لا تعلمها وأنا لا أعلمها، فلم يُجِبْهُ النبي ﷺ عن ما لا يعلمه.

ومما يحسن التنبيه عليه: أنه إذا ترتَّبَ على إظهار العلم مفسدة مُتحقَّقة فكتمانُ العلم متعيِّنٌ، ومنه الكلام مع العوامِّ بما لا تدركه عقولهم.

وقد ذكر الإمام مسلم رحمه الله في مقدمة صحيحه، أثَرَ ابن مسعود رضي الله عنه: (ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا، لا تبلغه عقولهم، إلَّا كان لبعضهم فتنةً).

وقال الشاطبي رحمه الله في الموافقات: (ليس كلُّ ما يعلَمُ مما هو حقٌّ يُطلَبُ نشرُهُ، وإن كان من علم الشريعة).

۞۞۞۞۞

قال الناظم رحمه الله:

وَلَوْ يَكُونُ الْقَوْلُ فِي الْقِيَاسِ مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَاءَ عِنْدَ النَّاسِ
إِذًا لَكَانَ الصَّمْتُ مِنَ خيْرِ الذَّهَبِ فَافْهَمْ هَدَاكَ اللَّهُ آدَابَ الطَّلَبِ

الشرح:

هذان البيتان فيهما الحثّ على لزوم الصمت عند الحاجة إليه.

فالواجب على العاقل أنْ لا يَتكَلَّمُ إلا إِذَا كَانَ الكلامُ خيرًا، وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَتْ مَصْلَحَتُهُ، ومَتَى شَكَّ في ظُهُورِ المِصْلَحَةِ، فَلا يَتَكَلَّم، كما دلَّ على ذلك حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ) متفق عليه.

والقياس يدل على أنَّ المرءَ لو عرف قيمة الكلام في وقته، وقيمة السكوت في موضعه، لتيقَّنَ أنَّ الصمت -في كثير من الأحوال- من خير الذهب فهو أفضل وأغلى من الذهب الخالص، وبخاصَّة إذا كان الكلام لا فائدة منه، كالجدال العقيم، أو الغيبة، ونحو ذلك.

ثم ختم الناظم رحمه الله منظومته بالدعاء لطالب العلم بالهداية للحقّ، والحثِ على التفكُّر والتعقُّل، وفَهْمِ آدابِ طلب العلم التي أشار إلى شيء منها، فثمارُ التمسُّك بآداب الطلب عظيمة، فبالأدبِ يُحصَّلُ العلمُ ويُفهَمُ، ويُنتفعُ به، وهو مِنْ أسباب قبول الناس للعلم، والمرء يبلغ بحسن الأدب إلى عظيم الدرجات وهو قليل العمل، وإذا حُرِمَ الأدبَ حُرِمَ الخيرَ كلَّه.

وبهذا تمَّ شرح هذه المنظومة اللطيفة، والله أسأل أن يهدينا لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، فإنه لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا هو، وأنْ يجنِّبنا مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَهْوَاءِ، وَالْأَدْوَاءِ إنه سميعٌ مجيبٌ.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.